روايـــــــــــــــة

مذكرات فتاة لم تعثر على عريس

سعيـــــد ســـالم

– 1 -

يـاحبيبى ..أينمـا كنـت وحيثمـا ستكون ومتـى تجـىء ، فـإنى بانتظـارك. لـو اقتضـى الأمـر أن يطول انتظارى حتى آخر يوم من عمرى فسوف أنتظرك.. وكيـف أتخلـى عن صبرى وأنـت أملى وعمرى الآتى والحاضر والفائت. أنـت الرجـل الأوحـد الـذى يستحق الانتظـار. ياطيب الأنفاس يامن شممت عبق الورد فى فمك،يامن ينبت الزهر مع وقع خطواتك على الأرض، يارقيقا كوردة على غصن رطيب أو قبلة على فم حبيب. يامنية النفس أفديك بعمرى وأبيع الدنيا كلها وأشتريك. انى لا أتصور حياة حقيقية بغير وجودك فيهـا. حين تدهمنى هواجس الهجر والغياب والفراق فإنى أرتجف فزعا وتميد الأرض من تحتى وتتخطفنى الشياطين من المس.

تجلىّ عليك الله بصفة الكرم فتجليت على حياتى باسم الكريم. أحبك يـا"ببى" وسأظل أنتظرك ولسوف تأتينى يومـا لتنبعث فى حياتى كطيف نـورانى كريم ونعيش معـا ذكرياتنـا الماضية وحاضرنا السعيد.

****

فى الليل أشعر باختناق من هذا البيت رغم أنـه شديد الاتسـاع ، ينـام كل فرد فيـه بغرفـة مستقلة فيما عدا أبى وأمى فهمـا ينامـان فى غرفـة واحدة وإن كـان كل منهمـا ينـام فى فـراش مستقل. ينتابنى هذا الشعور حين يصطدم بصرى قبل النوم بالحـائط الأصم لغرفتى فـأرى نهايـة الكون وأفكر فى مصير الانسان لو كتب عليه أن يعيش وحيدا بـلا أنيس. الأنس إحسـاس جميل بالدفء والحنان والطمأنينة. هنيئا لمن تمتع فى دنياه بالأنس ورضيت عنه الدنيا فرضى عنها.

أما فى النهار فأنـا مهرجـة السيرك المعتمدة لدى الأسرة. أتبـع مختلـف الحيل والألفانين لأثير فى البيت جوا من الصخب والمرح واللهو والضجيج. أغنى لهم من القديم والحديث وأمثل أدوارا كوميدية لبعض الفنانين والفنانات، وأرقص لهم على أغانى أم كلثوم وغيرها. لا أنزوى بنفسى الا حين أقرأ كتابا أو أتدرب على البيانو فأشعر بمتعة لاحدود لهـا. الحيـاة بلا مرح لاطعم لها ،فالله خلقنا فى هذه الدنيا لننعم بها ونسعد ونمرح لا لنحزن ونكتئب فى انتظار الموت .

القراءة والعزف يغنيـانى عن أى شىء فى هذه الدنيا التى مازلت أراها جميلـة وأحبهـا وأريد منهـا الكثير رغم أنهـا تصر علـى أن تعطينـى قفاها حتى اليوم. الفلاسفة يعلموننـا ضرورة الاستغناء وانكماش الرغبات حتى نشعر بالرضا والحرية. أنا لا أستطيع أن أتنـازل عن حقى فى الحياة بقدر استطاعتى طولا وعرضا وارتفاعا.

القراءة تضيف الى عمرى أعمارا بحجم التجـارب التـى أستوعبها وأفيد منهـا. حين أقرأ رواية تنشأ بينى وبين أبطالهـا علاقـات مباشرة . أشعر أنهم يتحدثون الى وأتحدث اليهم. يعوضوننى بالأنس بهم عن الأنـس المفقود. حتى القرآن الكريم عندما أقرأه أشعر أن الله سبحانه يخاطبنى مباشرة فتنزل السكينة على قلبى ولا أخاف المستقبل.

أما الموسيقا فهى ملاذى الجميل ، اذ أنها خير ما يعبر عما يدور فى وجدانى مما لاسبيل الى التعبير عنه بكلمات يمكن فهمها. ذلك أنها منطقـة لاوعى لاتكشف عن روعتها الا من خلال وعورتها وغموضها. حينئذ يتبين لـى أن سعادتى الحقيقيـة بعيدة عن رغبـات الحيـاة المادية المنهكة للروح. الموسيقا حين تكون فوارة الأحاسيس جياشـة العاطفـة تولد لدى متعة حسية خرافية تعطينى طمأنينـة ودفئـا وحنانـا وأمانـا فأصبح فى غنـى تـام عن مسألة الزواج والتفكير فى الزواج وأهمية أن أصير من فتـاة الـى امرأة. ان عناصر الموسيقا لهـا نفس مكونات عواطفى كأنثى بما تقوم عليه من ايقاع وتمبو وديناميكيـة وصعود وهبوط . كلهـا عوامـل ومـؤثرات تـوقظ فـى روحـى أعذب العواطـف وتحركهـا فتـدفعها الـى السـمو والتسامى بغير عوائق أو معضلات .

كـان مـن نتيجـة علاقتـى الغامضـة بقفـا الـدنيا أن أصبت بحالـة أعتقد أن علمـاء النـفس لـم يكتشفوها حتـى الآن. هـى مـزيج متنـاقض – متجـانس - مـن الشـعور الـدائم بالملـل القاتـل

والعدمية والسعادة وحب الفوضى والتسليم للقدر والميل الشديد الى الاعتقاد فى عبثية الحياة وحب التمرد عليها. كل ذلك فى آن واحد. حتى وأنا أصلى فلا أختار الا الآيات التى تشير الى أن الحياة الدنيا لعب ولهو وغرور وفناء.

هكذا أصبح سلوكى يثير تعجب الناس ودهشتهم، فأنا يمكننى أن أفعل أو أقول أى شىء فى أى وقت ولأى أحد وفى أى ظرف، دون أن تفارق الابتسامة وجهى وبغير أدنى انفعال أو افتعال.

قال لى أبى مرة:

- إن كل أقوالك وتصرفاتك غير متوقعة

لست أدرى أهى عشوائية أم تلقائية ، أم هو عصاب القلق المزمن الذى يؤدى فى معظم الأحوال الى التهاب القولون ، وقد بشرنى الطبيب إنه لن يفارقنى الا بعد الزواج. عندما سألته عن أعراض هذا العصاب قال لى إن مريض العصاب يدرك أن حاصل ضرب اثنين فى اثنين يساوى أربعة ، لكن هذه الحقيقة لا تسعده ، إذ كان يتمنى أن تكون الإجابة رقما آخر.

صحوت من نوم قلق لأجد رأسى مشحونة بأفكار غامضة لاعلاقة لها بمشكلتى الأزلية والتى يشاركنى اياها أكثر من عشرة ملايين فتاة لم ترتبط بزوج. المشكلة قابعة فى رؤوس الجميع إذ تتلامس مع مشاكل الاقتصاد والاجتماع والسياسة، رغم أننى لا أنظر اليها كمشكلة بنفس نظرتهم اليها ، وسوف يبين ذلك فيما بعد.

صداقاتى على الفيس بوك هى الوسيلة المثالية التى أنست اليها للتنفيس عما يجول بخاطرى من مثل هذه الأفكار ، فالأنس الى الإنس الحقيقى غير الافتراضى - رغم ضرورته - بات مغامرة، ويقولون ان الذئب لا يأكل الا الغنم القاصية.

جلست الى الكمبيوتر ووجدت نفسى أكتب على حائطى متقمصة شخصية فيلسوف مجهول : "الضحك كالبكاء تماما ، فالاثنان ينتهيان بالدموع".

أثناء تناولى الافطار كنت أتساءل عن العلاقة بين أى شىء يخصنى فى يومى وأمسى وغدى وبين هذه الجملة التى كتبتها فجأة وبلا مناسبة وتلقيت عنها عشرات التعليقات المختلفة. دموع البكاء تذكرنى بأبى ودموع الضحك تذكرنى بأمى. أبى يقتله القلق على بقائى دون زواج حتى الآن. كلما تزوجت ابنة أحد من أصدقائه تمنى فى قرارة نفسه أن أكون أنا العروس .أنا أصغر منها وأجمل ، فلماذا لم أتزوج حتى الآن. يحاول أن يعرف من صديقه كيف حصل على زوج لابنته ، وأى الوسائل التى اتبعها لتحقيق ذلك ، أم أن ابنته هى التى حصلت على العريس بمعرفتها وكيف كان ذلك؟.. أبى ليس من الصنف الحسود من الرجال ، فهو يتمنى الخير للجميع ولكنه يركز علىّ بصفة خاصة تركيزا لا مبرر له. أمى هادئة مستقرة لاتعانى من أى قلق بشأنى. ثقتها مطلقة فى ارادة الاله وفى أن النصيب يأتى بأمر منه فى لحظة أسرع من لمح البصر. أما أنا صاحبة الشأن وأس المشكلة فموقفى يكاد يكون حياديا متعادلا يتذبذب بين الاتجاهين. لشدة حيرة أبى وخوفه المرضى على مصيرى فإنه يبذل المستحيل ليحصل لى على رجل. يريق ماء وجهه بالحديث لكل من هب ودب عن ابنته مشيرة الجامعية الجميلة المثقفة وست البيت والفنانة الرقيقة المهذبة. لكثرة اتباعه هذا الأسلوب أصبح ينسى مع من تكلم بهذا الشأن ومع من لم يتكلم. يتصادف أن يدير اسطوانته المشروخة على أحد الأصدقاء فيفاجأ به يقول له:

- سبق أن كلمتنى عنها من قبل. ربنا يسهل ونجد لها عريس ان شاء الله

دائما يردد عبارة ثابتة:

- والله ما أنا عارف..هل أصيب جميع الرجال بالعمى؟

ينبش عن العرسان فى مواقع الزواج بالانترنت ويبدأ فى الاتصال ببعضهم. تعددت محاولاته لكن محاولة واحدة منها لم تتم بنجاح. بعض الشباب يكذبون فى بياناتهم والبعض يبحث عن فتاة يتسلى بها. البعض أيضا يجدون فى هذه الوسيلة فرصة كبيرة لاقتحام البيوت والأعراض والبحث عن علاقات مسمومة.

كان أبى قد تنكر فى اسم فتاة تحمل عمرى ومواصفاتى قبل أن يعلم أننى غضبت بشدة لاتباعه هذا الأسلوب الذى أرفضه تماما كوسيلة للحصول على زوج.

فبعد أن فقدت الكثير من الفتيات الأمل في الإلتقاء بالشخص المناسب الذي تقبله شريكا لها لآخر العمر، خاصة في ظل الظروف التي تجعل الفتاة بعيدة عن بلدها وجيرانها ومدينتها، وبعد أن بات الحلم بالعثور على فارس الأحلام مستحيلا، تواجدت فرصة تظنها بعض الفتيات أنها آخر الفرص، وهي الزواج عن طريق الإنترنت، فما أسهل وأسرع التعارف اليوم، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم بحقيقته، أو خداعه، فقد تلتقي فتاة بشاب عبر شبكة الإنترنت ويكون كل منهما على خلق ، ولديهما مصداقية فيما يدور بينهما من حوار خلال محادثاتهما عبر الانترنت، وقد يسفر ذلك عن زواج سعيد يباركه الجميع، ولكن يظل الغموض مصاحبا لبعض هذه الحالات، وقد يرفضه الأهل خوفا على مصير أبنائهم وفتياتهم، وحفاظا على بعض العادات والتقاليد، فهناك عدد كبير لحسابات وهمية لفتيات على أنها حسابات رجال يريدون الزواج، ويبدأ العبث بالمشاعر ويبدأ البعض بالتعلق بأمر وهمي لا وجود له فى الحقيقة.

كما أنه قد يلجأ بعض الرجال المتزوجين لاقتناص حياة رومانسية جديدة بعيدا عن زوجاتهم لتفادي الملل والرتابة، فيلقون بشباكهم على فتيات حالمات كل ما تتمناه الواحدة منهن رجلا صادقا حنونا يكون لها زوجا وأبا وأخا وصديقا ، وقد يتم الزواج فى بعض الحالات ولكن مع الوقت تحدث صدمة قوية للفتاة أو الشاب كأن تكون هي الزوجة الثانية، أو أن يكون الرجل قد وقع مع زوجة غير صالحة، تفتقد الاخلاق والقيم. وتنهى مثل هذه الحالات بالطلاق في أغلب الأحيان فما قام على الكذب، يكون الفشل نتيجته.

محاولات أبى"لاقتناص" زوج لى لا تهدأ أبدا ولا تتوقف. فى كل مرة تتخذ وسيلة جديدة للبحث والتنقيب. كل التفاصيل يحكيها لأمى باعتبارها أسرارا عسكرية. فى نفس اليوم أكون على علم بها من أمى التى أرى فيها أجمل صديقة عرفتها. قرر فجأة أن يكون العريس المنتظر من رواد النادى الاجتماعى الشهير الذى تشترك فيه أسرتنا. النادى ملىء بالشباب الذين لم يرتبطوا بعد ، ومعظمهم من أبناء عائلات محترمة ترتاد النادى من حين لآخر. من المؤكد أن هناك فرصا سانحة عديدة سواء مع الشباب أنفسهم أم مع عائلاتهم أوأقاربهم أو أصدقائهم.

بدأ العمل فى مشروعه من خلال أصدقائه المقربين، فهو على علاقات طيبة بأكثر من شلة من شلل النادى الذين يقاربونه فى العمر ، ومعظمهم لديه بنات لم ترتبط بعد، أو بنت واحدة على الأقل. خاب أمله الى حد كبير عندما تبين له أنهم جميعا يعانون مما يعانى منه وأكثر، فمعظمهم لم يستطيعوا أن يوفقوا فى أن يجدوا بالنادى عرسانا لبناتهم. بعض البنات هربن منهم ومن إلحاحهم بأن سافروا الى أوروبا للعمل والاقامة هناك بعيدا عن مجتمع يصفونه بالتخلف والرجعية ولهم الحق فى ذلك.

رغم ذلك فلم يفقد أبى الأمل نهائيا فى النادى بعد أن سمع من البعض عن زيجات متعددة قد تمت بين أرجاء حدائقه وصالاته الكثيرة. بدأ يضغط علىّ للذهاب معه بصحبة الأسرة أو صابرين على الأقل.

- يا بنتى يجب أن يراك الناس
- لكننى لست قاعدة فى البيت . انا أذهب الى العمل يوميا وأحتك بالناس
- لماذا لاترتدين ملابس الرياضة وتلفى حول التراك بالنادى كل يوم أو حتى كل يومين؟.

بالطبع يراوده الأمل فى أن ألتقى بفارس أحلامى وهو يجرى فى التراك ، لكنه لم يقل لى كيف سأقتنصه ، فهل أتعمد أن أجرى بجواره أم أوقفه عن الجرى وأسأله ان كان يرغب فى الزواج من فتاة صالحة أم ماذا أفعل؟.

وجدت أن أيسر سبيل للخلاص من فكرة أبى بتخليصى وتخليصه منها أن اختلق له قصة مؤلمة تهدف الى نفس الغرض.

- اسمع يا جميل. أنا بصراحة كرهت النادى ولم أعد أطيق الذهاب اليه أو حتى سماع اسمه.

صدقنى على الفور كعادته ، دائما ترتسم على وجهه دهشة الأطفال من أى شىء.

- لماذا يامشيرة؟
- كلما ذكر اسمه أمامى أصاب بضيق فى التنفس
- ياساتر يارب. ليه يابنتى؟

كنت أصلح أن أكون ممثلة من الطراز الأول.

- لم أكن أريد أن تعرف شيئا عن هذه القصة
- أى قصة؟..يجب أن تصارحينى يابنتى. ربما أفادتك مشورتى
- مررت بتجربة حب قاسية فاشلة مع صديق بالنادى
- وهل هذا يعنى نهاية العالم؟..لماذا لاتخوضين تجربة أخرى؟
- لابد أن يمر زمن طويل قبل أن أعاود الذهاب الى النادى حتى أنسى هذه التجربة ، وحتى أتجنب رؤيته
- هل آذاك فى شىء؟
- نعم. كذب على فى كثير من الأمور ، وفى النهاية أراد إغرائى بالذهاب معه الى شقته الخاصة
- أعوذ بالله
- شفت يابابا؟..أرجوك لا تسمعنى سيرة النادى مرة أخرى
- على راحتك يا ابنتى

وهكذا نجحت خطتى . الحمد لله.

فى يوم حاول أبى أن يواسينى عندما لاحظ على بعض إمارات الحزن والتوتر. قال لى:

- تصورى ما هو أقصى ما يمكن أن يحدث لك لو لم يشأ العلى القدير أن تتزوجى
- لست أدرى
- ستعيشين بمفردك
- وبعد؟!
- هل يعنى هذا نهاية العالم؟..كثيرات غيرك عشن حياة سعيدة هانئة بلا زوج
- لكنه شىء محزن للغاية

ينطبق على أبى المثل القائل: "جه يكحلها عماها".

لم يقل أبى شيئا ، وإنما قالت دموعه الحبيسة أشياء أخرى كثيرة.

قالت أمى لفارس:

- هو أنت لا نفع منك أبدا؟!
- كيف يا أمى؟
- ألا من عريس لأختك من أصدقائك؟
- مثل من؟
- مثل على ومحسن وخالد .
- الثلاثة قد ارتبطوا
- من خيبتك يافالح لأنك انتظرت طويلا فأضعت الفرصة على أختك
- كيف؟
- كان الثلاثة يذاكرون معك ويرون أختك كل يوم
- وماذا كان المفروض أن أفعله؟
- بلا خيبة. المفروض أن يكون البحث عن عريس لأختك هو شغلك الشاغل ، لكنك أنانى لاتفكر الا فى نفسك

عندما أضع نفسى مكان أمى البارعة فى إخفاء انفعالاتها ومشاعرها تجاه كل ما أعانيه وما أواجهه من أحداث تخص مسألة ارتباطى برجل، فإننى أشعر بألم شديد ربما يفوق الألم الذى تشعر به هى نفسها ، لكن ما باليد حيلة ، فليس أمامى الا الانتظار.

....

يتوالى قدوم العرسان على بيتنا. البعض عن طريق مواقع الزواج التى تورط فيها أبى بأثر رجعى ، والبعض عن طريق المعارف والأصدقاء والعائلات من الأقارب.

بين الحين والآخر يخاطبنى أبى بلهجة كاريكاتورية لاتخلو من عنف - دون أن يدرى - وهو يحثنى بشدة على الانطلاق فى الحياة مع الصديقات والسفر فى الرحلات والقيام بالزيارات الاجتماعية حتى أعثر يوما على مبتغاه، والذى ليس بالضرورة أن يكون مبتغاى.

أعتقد أنه لولا وجود أمى فى حياة أبى لاختل توازن الأسرة جميعا. هى بمثابة رمانة ميزان حياتنا. أبى ينطبق عليه الوصف الشعبى:"رجل هلهلى" ، ليس بمعنى أنه ساذج او عبيط ، وإنما بمعنى أنه يثق بالناس والزمن والقدر ولا يخاف من المستقبل. ينظر الى الدنيا بعينى طفل نقى برىء وقلب أخضر ونوايا حسنة تجاه الناس والأيام. هو رجل متكل على الله بشدة دون أن يدرى، لكنه غير متواكل فهو يعمل كثيرا ويربح أكثر. أمى سيدة حصيفة حاضرة البديهة حسنة التدبير والتخطيط. تعوض كل ما فى أبى من نقص فى تسيير حياتنا اليومية والمستقبلية. عندما تحذره أمى من أسلوبه الآمن للحياة والبشر بهذا الشكل يقول لها:

- أنا لاأعرف أن أعيش مرتاحا الا بهذه الطريقة ، كما أن اتباعها لم يصبنى بخسارة تذكر. لو غيرتها سأفشل فى التعامل مع الحياة والناس
- المثل الشعبى يقول:"حرّص ولا تخوّن".. أنت لا تخوّن ولا تحرّص
- مشكلتك أنك تريدين أن أكون مثلك ، فأنا أبدأ علاقتى بالآخرين بحسن الظن بهم حتى يتبين لى العكس ، أما أنت فلا تستطيعين الحياة بغير سوء الظن بالخلق.
- سوء ظنى بالناس ليس مطلقا ، لكنى أبدأ بسوء الظن حتى يتبين العكس

أحب أبى وأمى جدا وهما – فى رأيى – نقيضان متكاملان متحابان. أحب إخوتى وأحب بيتنا وحيّنا وبلدنا. لا أعرف لحياتى طعما بدون هذه الحلقة المتكاملة من الحب.

أحب الحب وأبحث عنه ، لكنى لا أعثر عليه. لا أتصور كيف تكون الحياة بلا حب. الحب هو خلاص الانسان فى الأرض مثلما الإيمان خلاصه فى السماء. والفن هو الجسر الذى يصل بينهما وأراه متمثلا فى الموسيقا التى أعشقها. هو النغم الذى ينبعث من الوتر وليس الوتر نفسه.. والموسيقا تملأ روحى ووجدانى بما تشف عنه كل المعانى الجميلة والمشاعر الانسانية الراقية.

أحب صديقتى المجنونة صفية. تزاملنا فى الجامعة وعملنا بعد تخرجنا فى مكتبة معهد المعلمات لفترة طويلة حتى أصابتها منى عدوى فيروس الملل، فتركت المعهد الى العمل بالسياحة حين تركته أنا للعمل مع أحمد مراد. عندما أتحدث مع صفية أرتاح كثيرا وترتاح هى الأخرى ولا ينقطع بيننا الكلام الا بعد أن نتعب. صداقتنا بمثابة تفاعل روحيّ وحوار عقلانيّ يدخلنى في علاقة متينة ووثيقة مع صفية حتى أننى أرى فيها مرآة لنفسى، تدلنى على ذاتى ،وتبحث في عن جمالى الحقيقيّ وتصوّب لى هفواتى وأخطائى ، وهذا ما أجنيه من صداقتى لها ، فهى لا تريد الا ما هو خير لى.

أحب عملى بالمكتبة. الكتب ملك يدى كل يوم من الثامنة صباحا وحتى الثالثة عصرا. كنوز من التجارب الحياتية لاحصر لها.الساعات السبع تمر علىّ بسرعة البرق دون أن أدرى مادمت منكفئة على تجربة انسانية أستغرق فى معايشتها ، كانت رواية أم ديوان شعر أم مجموعة من القصص أو المقالات، فضلا عن الكتب الفلسفية والسياسية وكتب علم النفس. أما الشعر فهو معشوقى الأول فى عالم الكلمات . لايعطلنى أحد عن القراءة فزوار المكتبة من القراء لايتعدوا أصابع اليد الواحدة يوميا.

لى محاولات متنوعة فى كتابة الشعر والقصة ، لكنى أحتفظ بها لنفسى ولم أفكر يوما فى نشر أى منها. قارئى المفضل هو أبى. يشجعنى دائما على المواصلة ويحثنى على النشر لكنى لا أعبأ بذلك.

رغم ذلك فكثيرا ماتنتابنى نوبة من الملل القاتل لركود حياتى واستنزافها بين الأوراق المطبوعة والصمت القاتل ، وأنا ساكنة فى وضع استاتيكى يخلو تماما من الحركة والتغيير. كثيرا مافكرت فى تغيير عملى بترك هذه الوظيفة والبحث عن عمل آخر يجدد حيويتى وينعش حياتى.

عندما وجدت حالة الملل تلازمنى فى كل عمل، حاولت أن أعرف إن كان لهذا الأمر صلة بعدم توفيقى فى الارتباط برجل حتى الآن أم لا. أعرف أن الملل حالة نفسية تنشأ من قيام الفرد بمزاولة نشاط ينقصه الدافع ، أو من الاستمرار في موقف لا يميل إليه الفرد. وتتميز هذه الحالة بضعف الاهتمام بالنشاط أو الموقف وكراهية استمراره والرغبة في الانصراف عنه. أعرف أيضا أنه حينما يؤدي الملل إلى حالة من الألم فإنى أبدأ فى البحث عن مخرج لهذا الحال بين الأهل أو الأصدقاء أو ربما أسعى إلى تخفيف حدة هذا الشعور بتغيير مكان عملى ، حتى أصبحت عادة..إننى أشعر أحيانا أننى أعيش الملل في تفاصيل حياتنا وخصوصاً عندما تكون البيئة المحيطة بنا بيئة تسبب القلق وعدم الراحة واختلال العلاقات فأشعر أننى في مهب الريح لا في حاضرى فحسب، بل في رؤيتى للغد أو للمستقبل.

أرجو الله ألا يقودنى هذا الملل يوما الى الاكتئاب الذى يقول الدكتور عكاشة إنه يزداد فى مصر ويعانى منه معظم الشعب ، إذ تزداد ظاهرة الملل ويردد الناس العديد من الأقوال الدالة على ذلك مثل قولهم:

- مللنا التفجيرات!
- مللنا فقدان الأمن!
- مللنا الروتين اليومي في حياتنا!
- مللنا النفاق والغِيبة والنميمة بين الناس!
- مللنا حياة الفقر!
- مللنا ضبابية المستقبل لنا ولأولادنا!
- مللنا الجري اليومي! متى نرتاح ويستقر الوضع السياسي؟ متى نلمس راحة البال والشعور بالأمان؟ متى يعود الناس إلى إنسانيتهم، وطيبتهم، ولا يأكل الأخ أخيه؟.

..هذه وغيرها العديد من الأسئلة الاخرى المحيرة يتداولها الناس كل يوم.

مجال عملى يكاد يخلو من الرجال، لكنه لايخلو أبدا من النساء ومكائدهن التى لاتنتهى، والتى أبذل ما أملك من جهد لتفاديها، محاولة ارضائهن قدر استطاعتى لاتقاء شرورهن التى تنصب بتركيز شديد على فتاة ينظرون اليها على أنها عانس شريرة قد رفضها الرجال وانصرفوا عنها ، وأصبحت أسيرة لمصمصاتهن وبصبصاتهن ونظرات الاشفاق الكاذبة على وجوههن.

رغم أن طبيعة حالتى تقتضى أن أستقبل العريس يلى الآخر، أيا كان المكان الذى قدم منه أو كانت ظروفه، فإننى لا أقبل أبدا أن يأتينى العريس عن طريق زميلاتى أو رئيساتى فى العمل ، لأنهن جديرات بتحويل كل قصة زواج من هذه القصص الى فضيحة ذات جرس.

فى بداية الأمر كنت أشعر بشىء من الضيق عقب فشل كل زيارة من زيارات هؤلاء الرجال الذين جاءوا لاستنجارى أو شرائى من أهلى. لكنى كشأن أى انسان أصبحت أسيرة للعادة، بعد أن تكررت هذه الزيارات التى كشفت لى عن نماذج غريبة من الرجال المتقدمين والنساء القادمات معهم. لن يصدقنى أحد بالطبع حين أقول ان الاستقبال المتتابع لهؤلاء المغول – أحيانا أسميهم التتار – قد تحول فى النهاية الى وسيلة للتسلية والمتعة ، حتى أننى فكرت أن أتحول الى كاتبة بالفعل تروج أعمالها فى دور النشر المختلفة.

أول مؤلفاتى سيكون كتابا اجتماعيا نفسيا بعنوان"نماذج بشرية". أنا أعلم بالطبع أننى لن أنافس الدكتور محمد مندور فى كتابه الشهير الذى يحمل نفس العنوان ، فنماذجه

مختارة من الأعمال الأدبية العالمية الخالدة ، أما نماذجى فكلها من عرسانى خيبهم الله. سوف تتصدر مقدمة الكتاب المقولة التى طقت فى نافوخى وكتبتها على حائطى بالفيس بوك عن تساوى دموع الفرح بدموع الحزن. أعتقد أن هناك علاقة لم أفهمها بين العبارة ومضمون الكتاب ، مثلما لم أفهم أشياء كثيرة صادفتنى فى هذه الحياة.

شرعت بالفعل فى محاولة تأليف الكتاب – على شكل فصول مختلفة - رغم أن عملية التأليف ستزيد من استاتيكيتى وسكونى. كانت الوسيلة العملية التى لابديل عنها لتحقيق التوازن المطلوب هى تغيير مكان العمل - الذى أحبه - للقضاء على مللى المزعج.

يغيظنى أن طالبات المعهد اللاتي سيكن فى القريب مدرسات تتخرج على أيديهن أجيال من الفتيات ، لايتعاملن مع المكتبة الا فيما ندر. نماذج معينة محدودة يحضرن للاطلاع أو الاستعارة. فى البداية كنا نلقى باللوم على التلفزيون والفيديو . بعد ذلك جاء النت والفيس بوك والتويتر ، فكاد دورالكتاب أن يموت. أشعر فى كثير من الأحيان وأنا جالسة وحدى بالمكتبة أن راتبى الذى أتقاضاه من الوزارة ليس حلالا. فأنا فى معظم الأحيان لا أفعل شيئا ، ولولا القراءة علىّ لمتّ كمدا.

الذى أغرانى أن أقدم على هذه الخطوة هو أحمد مراد. صاحب مطبعة ودار نشر معروفة بالاسكندرية. تردد علينا عدة مرات بحكم التعامل بينه وبين المعهد فى بيع الكتب الجديدة وشراء الكتب التى يتم تكهينها بالتقادم. أرمل فى حوالى الخامسة والأربعين. تبدو هيئته كمقاتل بقوات الصاعقة، فهو طويل عريض قوى البنيان جاد فى لهجته تماما كالعسكر. شديد الأدب والحياء.الحوار معه يكشف عن تمتعه بدرجة عالية من الطيبة لست أظن أنها مفتعلة. بمعنى آخر تبين لى من تعاملى معه أنه رجل بمعنى الكلمة.

هذا الصنف من الرجال يأسرنى بذوقه وثقافته وتعففه عن الصغائر. كنت أسحب منه الكلمات بصعوبة كما لو كنت أسحب مقطورة حديدية ضخمة. يتكلم بالقطارة وبحساب دقيق. غير أن أكثر ما لفت نظرى فى وجهه وشخصه بوجه عام هو تلك الابتسامة الرائقة الصافية البريئة على شفتيه. أحيانا أرى عالم الرجال عالما مبهرا يشدنى اليه ويجذبنى نحوه ، مشحونة بالإعجاب بصفات الرجولة الحقيقية كما أراها ، لا كما تتركز عند الكثيرين فى النصف الأسفل من المرأة .

ان مسألة انجذاب الرجل للأنثى وانجذاب الأنثى للرجل أمر فطرى ، يشذ عن طبائع البشر من لايعرفه أو يشعر به. لذلك لست أجد حرجا فى مصادقة بعض الرجال المحترمين ، بل إنى أشعر بضرورة مثل هذه الصداقات التى تجمل الحياة وتلونها وتضيف اليها وتجعلها أكثر اتساعا وعمقا. المشكلة أن الجنس عند الجنسين هو العائق الأوحد لنجاح مثل هذه العلاقات. هذا التابو الاجتماعى العرفى الدينى الذى نعانى منه كمجتمع ، فيشل حركتنا ويعوق تقدمنا.

لست أدرى ما المانع أن يكون للرجل صديقات نساء مثل أصدقائه الرجال وأن يكون للمرأة أصدقاء رجال بجانب صديقاتها النساء مادامت الصداقة بهذا المفهوم الراقي ، ولماذا التعسكر في معسكرين معسكر الصداقة بين المرأة ومثيلتها المرأة ومعسكر الصداقة بين الرجل ومثيله الرجل ؟! إذا كان هناك مانع فهل هو مانع ديني أو عرف اجتماعي أو هو من جانب الرجل فلا يريد أن تكون له صديقة أو بالعكس هن لا يرحبن بذلك ؟..الأديان السماوية السمحاء لم يكن لها موقف سلبي من مسألة الصداقة بين الرجل والمرأة مطلقاً، فالدين الإسلامي حذر من اجتماع رجل وامرأة في مكان مغلق لئلا يقعا في الخطيئة . مثل هذه الأحكام بحسب الفقه الإسلامي تسمى أحكام إرشادية أي أن المسلم لو خالفها لا يكون آثماً فهي من باب النصيحة ليس إلا.ويبنى هذا الفهم الخاطئ من المجتمع للعلاقة بين الجنسين على ركيزة أساسية هي فقدان الثقة من الجانبين، جانب المرأة وجانب الرجل، ويرجع فقدان الثقة بينهما إلى عامل أساسي أيضاً وهو الجدار العازل الذي وُضع بين الرجل والمرأة وأغلق على كل واحد منهما وعزله عن الآخر .

أنا لا أشك أن علاقة الصداقة هى أجمل علاقة بين بني الإنسان، فهى تفاعل روحي بامتياز وحوار عقلاني متزن وبالتالي يترفع الطرفان عن الانزلاق في فخ الغرائز والرغبات لأن الرجل وقتها لا يخاطب المرأة كأنثى وإنما كإنسانة، محترماً كل قدراتها العقلية والعاطفية؛ لذا يتطلب الأمر نضجاً عقلياً وروحياً بعيداً عن أنصاف وأشباه الرجال ومحبة صادقة بين إنسان وآخر. الخلاصة أن طرفى علاقة الصداقة هما من يحددان مفهوم وأسس الصداقة بينهما ، وأن أي اختلال من أحد الأطراف سواء رجل أو امرأة قد يكون سببا فى هدم العلاقة ، ليس عيباً في الصداقة ولكن في أطرافها.

رآنى يوما مستغرقة فى قراءة رواية أحلام مستغانمى"ذاكرة الجسد". أحب هذه الكاتبة المجنونة بجنون أشد من جنونها. تلعب بالألفاظ والكلمات والجمل والأفكار كما لو كانت تعزف على عدة آلات موسيقية فى وقت واحد وفى هارمونية متناغمة دون نشاز.

فوجئت به يوما يبادرنى بالحديث فى غير شئون العمل:

- **هل أعجبتك هذه الرواية؟**
- **انى أقرأها للمرة الثالثة..هل قرأتها؟**
- **نعم**
- **وما رأيك بها؟**
- **رأيت فيها بكائية رجل لم يهنأ بحبيبته وكان هو المسئول عن ضياعها**
- **كيف؟**
- **الحب يولد مع الاقتحام ويموت مع الجبن والتردد ، وصاحبنا سلم محبوبته لصديقه بيده السليمة وراح يبكى على يده المقطوعة كما لو كان يريدها أن تساهم مع الأخرى فى عملية التسليم الساذجة**
- **هذه وجهة نظر ، فنحن نتعامل مع عمل فنى يحتمل العديد من التأويلات**
- **عموما لقد كان الفشل مكتوبا على العلاقة خاصة وأن الفارق بين عمريهما ربع قرن**
- **لكنى سمعت وقرأت عن تجارب حب ناجحة رغم وجود مثل هذا الفارق**
- **يجوز..لكنها لايمكن فى أغلب الأحوال أن تنتهى الى زواج ، وحتى إن تم الزواج فإن العلاقة فى ظنى لن تنجح**
- **لماذا؟**
- **لأن الرجل فى هذه الحالة هو الذى سوف يقاسى أكثر مما تقاسيه زوجته نفسيا وجسمانيا . هى لن تستطيع التجاوب معه على الدوام ، مثلما لن يستطيع التجاوب معها هو الآخر فى أمور عديدة تعتمد فى معظمها على قوة الشباب واندفاعاته الرائعة نحو الحياة.**

أعجبنى حواره وفرحت به، فما من مخلوق يوحد الله ذكرا كان أم أنثى فى هذا المعهد يفتح كتابا ليقرأه، وكأن ملامسة الكتاب عندهم رجس من عمل ابليس.

بعد أن زال عنه خجله واعتاد علىّ ، تكررت بيننا حوارات مماثلة كشفت عن ثقافته ورزانة فكره وعمق تجربته فى الحياة، كما كشفت لى بوجه خاص عن صوت عميق دافىء جذاب من الصعب مقاومة الاستماع اليه.

قال انه بحاجة الى من يساعده فى عمل الدار مساعدة فعالة بحيث يمكن أن ينوب عنه حال انشغاله بأعمال تجارية أخرى أصبحت تستنزف جزءا كبيرا من وقته وطاقته. داعبت رغبته أمنيتى بتغيير مكان العمل فسألته بجدية:

- **وماذا تشترط فى المساعد كى يتولى هذا العمل؟**
- **أفضل أن تكون سيدة أو آنسة**
- **وماذا عن شروط الخبرة؟**

- أن تكون جامعية وملمة بعالم الكتب والمطبوعات بوجه عام
- وعن العمر
- أن تكون فى حوالى الخامسة والثلاثين
- وعن الشكل أو المظهر
- من الأفضل أن تكون على درجة مقبولة من الجمال فضلا عن حسن مظهرها

كدت أطير من الفرح ، فشروطه بلا استثناء تكاد تنطبق على تماما. قال لى:

- لقد سألت كثيرا عن الشروط لكنك لم تسألينى عن الاسم
- اسم من؟!
- اسم من ستكون ساعدى الأيمن وستتقاضى أضعاف ما تتقاضاه من راتب فى عملها الحالى
- لا أفهم
- بل تفهمين. أنا أريدك معى يا آنسة مشيرة

اذن فهو ليس سهلا كما تصورت. يعاكسنى ولكن بخفة ظل فريدة وظرف شديد ذى قبول.

تقدمت باستقالتى الى المعهد والتحقت بالعمل لدى أحمد مراد بدار نشر"السعادة". العمل الجديد حافل بالحركة والاتصالات ولقاء المؤلفين وكتاب الرواية والشعر وأساتذة الجامعة. وجدت نفسى متحققة فى هذا المكان، خاصة عندما تأكدت من ثقة أحمد مراد فى كفاءتى واعتماده على وجودى المتميز فى غيابه.

بعد فترة وجيزة من العمل أعطانى حق توقيع العقود مع المؤلفين نيابة عنه. اطلعت على أسرار الدار ، وعرفت كيف أن مؤلف الأعمال الأدبية هو أقل المتعاقدين حظا فى قيمة الأجر ، بل إن بعض المؤلفين المبتدئين يدفعون للدار نصف تكاليف الطباعة تشجيعا من مراد لهم. علمت أن بعض دور النشر الأخرى تتقاضى منهم ثمن الطباعة كاملا. لفت نظرى أن كثيرا من الكاتبات خاصة فى المجال العلمى بالجامعة ومن خارجها كن آنسات. تلبس الواحدة منهن نظارة طبية سميكة العدسات غير عابئة بشعرها المنكوش ولا بهندامها المبعثر. تمارس عملها فى صمت غامض .

اقتربت منى دكتورة فى كلية العلوم بعد كثرة ترددها على الدار. استرحت لتعاملها معى بأمومة وحنان رغم أن عمرها قريب من عمرى ان لم تكن تصغرنى بعامين أو ثلاثة. عرفت منها أنها خاضت تجربة حب فاشلة أعقبتها تجربتان فاشلتان أخريان فى الارتباط التقليدى. فى النهاية أعلنت عزوفها التام عن فكرة الزواج مكتفية بما تحققه من نجاحات فى مجالها الأكاديمى. دفعنى فضولى الشديد الى أن أسألها:

- قولى لى بأمانة. هل أنت سعيدة بحياتك هكذا ؟

أجابت بنبرة صادقة:

- فى البداية لم أكن سعيدة ، لكن اعتياد الأمر الواقع أنسانى المشكلة برمتها
- ولكن هل تصورت كيف يمكن أن تعيشى بقية عمرك فى وحدة وغربة بعد وفاة الوالدين وانصراف الأخوة والأخوات الى شئون حياتهم الخاصة؟
- نعم تصورت. لابد أنه سيكون شيئا كئيبا بالفعل
- اذن لماذا تسيرين نحوه هكذا بخطى مسرعة؟
- لأننى فقدت الأمل فى العثور على رجل يناسبنى ، كما لم أجد بديلا عما أنا فيه الآن.

أشفقت عليها بشدة حين تذكرت ما آل اليه مصير خالتى الراحلة التى عاشت عمرها وحيدة تعانى من جفاف عاطفى أحالها الى حطام امرأة بائسة تفتقر الى لمسة حنان أو كلمة حب من زوج أو أبناء.

تجربة خالتى لم تؤثر كثيرا على أمى ، وإنما كان تأثيرها بالغا على أبى حتى أنه قال لى مرة بصراحة مفجعة:

- كيف وصلت الى هذا السن ولم تستطيعى اصطياد رجل؟!

الحق أن عبارة أبى آلمتنى بشدة وإن أخفيت عنه مشاعرى.فقدانه للطمأنينة يحيرنى فهو ليس رجلا عدميا أو عبثيا يفتقر الى الارتكان الى قوة الله وعونه ومساندته.

- **اصطياد رجل؟!!**
- **نعم . أنا أتكلم العربية**
- **كان من الأولى بأمى أن تخاطبنى بهذا المنطق ، لاحضرتك يا أبى**
- **اعذرينى فقد أصبحت مصدر عذاب لحياتى لم أعد أطيق تحمله**
- **أنت الذى تعذب نفسك بلا طائل. أنا نفسى لا أشعر بذرة من العذاب**
- **طبعا. لكنك ستشعرين به حين ترقدين فى شيخوختك مريضة عاجزة عن الحركة ولا تجدين من يمد اليك يده بكوب من الماء**
- **ياساتر. فال الله ولا فالك يا أبى العزيز. روق دمك وكبر دماغك وانس هذا الموضوع من فضلك**
- **برودك يكاد يقتلنى**
- **أتعجب لأمرك يا أبى. كيف تصلى لله وتدعو له ليلا ونهارا، ومع ذلك فأنت يائس من رحمته غير واثق فى عدالته.. هيا بنا يارجل نغنى ونرقص**

هذا الرجل الجامعى المستنير لايعرف التشدد فى أى شىء الا فى حالتى. يعتبرها كارثة من كوارث دنياه أن بقيت آنسة حتى الآن. أمى التى لم تحظى الا بقدر متوسط من التعليم ومثله من الثقافة العامة، تتعامل معى فى هذا الشأن بدبلوماسية ذكية ومهارة فائقة دون أن تجرح مشاعرى. عندما حدثتها أكثر من مرة عن أحمد مراد معبرة لها عن سعادتى بالعمل معه سألتنى بابتسامة ذكية:

- **هل العمل معه هو الذى يعجبك أم هو نفسه؟**
- **الاثنان يا أمى يا ألذ مكارة عرفتها**
- **من يعلم ما الذى يخفيه لنا القدر فى هذه الدنيا**

وانتقلت بى على الفور الى موضوع آخر بعيدا كل البعد عن موضوع اليوم والساعة والدقيقة الذى يشغل بال أبى وفكره وضميره ويأكل أعصابه. رغم ذلك فأنا لم أستطع التخلى عن فكرة أن أتخذ من هذا الرجل صديقا حقيقيا، رغم أن معظم النساء لاتميل الى الصداقة ، فهى عندهن لا طعم لها إذا ما قورنت بالحب.

مثل هذه الصداقة لن تتحقق فى الغالب إلا بانعدام الأهواء الشخصية لدى . كما أن الأمر يتوقف من جانب آخر عليه ، فقد لايكون راغبا فى إنشاء مثل هذه العلاقة مع إنسانة ذات طبيعة ملولة متقلبة المزاج مثلى ، لن يتاح لها فى ظنه أن تكون صديقة حقيقية له.

****

-2-
فصل أول من مشروع الكتاب
****

جاء وحده فأزاح عن كاهلى عبء أسرة لست أعرف ماذا أو كيف كان سيكون من أمرها معى لو صاحبته فى زيارته الميمونة. بعد استقباله طلبت من أمى وأبى أن يتركانا وحدنا ، فاستبشرا خيرا وانصرفا سعيدين يداعبهما الأمل فى حدوث توافق بيننا. عودت أمى وأبى على ذلك مع تكرار زيارات العرسان. أن يتركانا بمفردنا لفترة من الوقت ، تتيح لى أن أتفرس فى عينى العريس لأقرأه.

لم يدرك المسكين أننى أسقطته من احتمال قبوله بمجرد رؤيته وإن لم أظهر له ما يدل على ذلك. سيادته يعلق أسفل وجهه ذقنا طويلة عريضة سوداء غير مهذبة ، قد تجلى فيها الغباء بوضوح قبل أن يتجلى على جبينه الضيق ومخارج حروفه الزاعقة اللزجة. بذلت أقصى ما استطعت من جهد كى لا أصدر عليه حكما مسبقا تأثرا بكراهيتى الشديدة للرجال ذوى الذقون الطويلة الذين يعتقدون أن اطلاق اللحية وإطالتها يزيد من تركيز هرمون الذكورة عند الرجل. تجاهلت انعدام اللياقة لديه فى مخاطبة أنثى حتى يكون حكمى عليه محايدا مبرءا من الانحياز. كان دليلى للوصول الى أعماقه هو حديث الامام على الذى قال فيه:"الرجال صناديق مغلقة مفاتيحها الكلام"، والذى يتطابق تماما مع مقولة سقراط الشهيرة:"تكلم حتى أراك".

حطت على رأسى فكرة أن أسايره وأجاريه فيما يقول ويعتقد ، حتى يأمن جانبى ويخرج من جوفه الحمضان كل معتقداته وأفكاره المتخلفة – كما توقعتها – وقد وقع بسهولة فى الفخ ، إذ تمادى فى أقوال انتقيتها من حواره بسهولة من قبيل:

- المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان

وقد ساق هذا الحديث – الذى ادعى صحته – حين عبر لى عن شرطه الأساسى للارتباط بى وهو ألا أعمل بعد الزواج ، وأعقب ذلك بقوله فى رزانة منقطعة النظير:

- ان عمل المرأة أفسد مهمتها فى الحياة كما خلقها الله لها وألغى قوامة الرجل عليها بنص القرآن الكريم.

أما فيما يتعلق بحقى فى مشاركته آراءه وأفكاره وفى عرض وجهة نظرى تجاه مسائل الحياة التى سنواجهها بالقطع معا ، فقد قال:

- يقول سيدنا عمر عن النساء:"خالفوهن فإن فى مخالفتهن بركة".

وقد برر ذلك باستناده الى حديث آخر لست أدرى مدى صحته قال فيه:

- النساء ناقصات عقل ودين

كنت أهز رأسى بحماس شديد مؤيدة منطقه الرائع ، ثم سألته :

- هل قرأت رواية الباب الضيق لأندريه جيد؟
- ليس لدى وقت لقراءة الروايات
- وماذا تفعل بمعظم وقت فراغك؟
- أقرأ القرآن أو أعتكف بالمسجد
- حتى فى غير رمضان؟
- نعم..فى أى وقت
- رائع!!!

انتفخ قليلا متسائلا بغرور:

- ماذا عن هذا الأندريه؟
- لقد قال فى روايته جملة ستعجبك جدا مثلما أعجبتنى
- ماهى؟
- قال:"انك ما أن تبدأ النقاش مع امرأة حتى تخسر كل شىء"!

تهلل وجهه بالبشر وقال فرحا:

- ونعم القول..حقا انه رجل حكيم
- فعلا أكاد أتفق معك فى كل شىء
- وأنا فى غاية السعادة لذلك
- اسمح لى أن أسألك ماذا يمكنك أن تفعل لو لم تشعر معى بالاكتفاء كزوجة؟.

ارتبك قليلا..

- من أى النواحى؟
- من الناحية التى أثق أنها هى التى تشغل بالك أكثر من كل النواحى الأخرى.

حاول جاهدا أن يتماسك أمام هجومى المستفز..

- فى هذه الحالة أتزوج بأخرى لأتجنب الفتنة ، ولكن أعدك بأنى لن أتخلى عنك وسأبقيك معها على ذمتى

تماديت فى خداعه...

- تسلم لى يا رجل ياطيب. هذا ما كنت أنتظره منك ، فمن الواضح أنك رجل شهم

بدأ يطمئن لى من جديد...

- يعجبنى فيك قبولك لوضعك كامرأة دون تمرد أو شكوى على عكس معظم السيدات المثقفات
- فسر لى من فضلك ماذا تقصد بوضع المرأة هذا فإنى منبهرة بفكرك التقدمى المذهل.

لم يخطر بباله أننى أسخر منه ، فمعالم وجهه كانت جادة تماما.

- مثلا كونك امرأة فهذا يعنى أن شهادتك فى المحكمة بنصف شهادة رجل وأنك تقبلين بذلك عن رضا واقتناع
- تمام..وماذا أيضا؟
- وأتوقع موافقتك الفورية لو طالبتك بارتداء الحجاب بعد الزواج مباشرة
- صدقنى هذا ما كنت أنتويه بالفعل قبل أن تطلبه منى.

تنهد فى ارتياح وقد اطمئن أنه اهتدى الى ضالته.

- أرى أنك ستكونين نعم الزوجة الصالحة لى
- وأنا أرى أنك نسيت أن تؤكد لى عدم ثقتك بى كامرأة حتى يكتمل توافقنا حد التطابق
- وكيف أؤكد لك ذلك؟
- ألم تقرأ ألف ليلة وليلة؟
- نعم لم أقرأها ولكن منك نستفيد
- تقول الرواية فى مفتتحها:

لاتثق بالنساء ولا تأمنن لعهودهن/ فرضاؤهن وسخطهن معلق بفروجهن

بدا عليه الارتباك والاستنكار لما سمعنى أردده من شعر إباحى بمنتهى الجرأة والثقة وبلا حياء. شرد قليلا يفكر مراجعا نفسه وقد بدت عليه الحيرة، غير متصور لخدعتى التى واصلت استدراجه اليها بخبث متجاهلة رد فعله الانفعالى القوى تجاه بيتى الشعر. قلت له:

- ولازم أيضا أن أذكرك بأنك أهملت مصائب أخرى كثيرة تخص المرأة لكنك لم تذكرها ، لا لجهلك بها ، ولكن ربما لأنك تحافظ على شعورى
- أية مصائب تقصدين؟
- كان يجب أن تقول لى فى معرض احترامك للمرأة التى جئت تطلبها أنها كانت من قديم الأزل تدخل ضمن ممتلكات ولى أمرها فى اليونان ، وأنها كانت تعامل كفاقدة للأهلية كطفل أو مجنون طبقا للقانون الرومانى ، وأنها كانت تعتبر عند اليهود فى منزلة الخادم ، وستجد مايدلك على ذلك فى الاصحاح21 من سفر التكوين الذى تسمع عنه الآن لأول مرة فى حياتك، كما ينص قانون الأحوال الشخصية فى اسرائيل على أنه حال وفاة الزوج تصبح الزوجة زوجة لشقيقه ولا تحل لغيره.

أخيرا بدأ الغبى ينتبه لوقوعه فى الكمين الذى نصبته له. قال شاردا:

- **ياه..كل هذه الأمثلة لاحتقار المرأة تعرفينها ولا أعرفها؟!**
- **نعم ، واليك المزيد. هل تعلم أنه حتى العام1993 كان هناك قانون فى الغرب وضعته الكنيسة سارى المفعول وهو أن يعطى الرجل زوجته لرجل آخر لمدة محدودة بأجر أو بدون أجر، وفى تلك الآونة باع انجليزى زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه استرلينى ، وقد ألغى البيع بعد إلغاء هذا القانون.**

اصفر وجهه وازداد ارتباكه وتفجرت حيرته. بدا التشكك فى نظرات عينيه وهو يبدى تراجعا هزيلا كاذبا :

- **انى أتعجب لمبالغتك فى التحقير من شأن المرأة وهذا مالم أقصده على الاطلاق**
- **واضح بالطبع ، لكن ما أريد هو التأكيد على صحة وجهة نظرك ، وعندى أدلة عديدة على ذلك.**
- **مثل ماذا؟**
- **قول ديستويفسكى العظيم فى الجريمة والعقاب :"إن أصعب شىء فى الحياة هو اتباع الصراحة مع المرأة ، وأسهل شىء هو إطراؤها".**
- **هذا صحيح ، فالمرأة بطبيعتها مخلوقة مراوغة.. هل من دليل آخر؟**
- **نعم.. يقول برناردشو "إن المرأة تنتظر الرجل كما تنتظر العنكبوت الذبابة"..**

ضحك بسعادة أكدت لى تفاهته واحتقاره الحقيقى للمرأة. واصلت تقديم براهينى المؤيدة لتخلفه:

- **حتى الفيلسوف العظيم شوبنهاور قال "ان النساء طويلات الشعر قصيرات الرأى".**

كلما ازددت تحقيرا فى بنات جنسى ازداد تقديرا واقتناعا بى. حسمت حديثى متسائلة:

- **هل رأيت نقصانا فى المرأة أكثر من ذلك؟**

تجاهل كل ما قلته وعاد الى نقطة الصفر التى انطلقت منها.

- **لكنى أحتج وأعترض على استشهادك بهذا الشعر، فلا يجوز أن تتفوهى بمثل هذه الكلمات الساقطة المبتذلة الداعرة أمام رجل بوجه عام ، وأمامى بوجه خاص، أنا الرجل الذى جاء يطلب يدك!**

بدأت أعد العدة لطرده فى هدوء بعد أن استنفدت كل قدراتى للنيل من غبائه وتخلفه. قلت له مشيحة بيدى فى سخرية واضحة:

- **يارجل كبر دماغك**

ازداد ذهوله ، وقد فتح فمه عن آخره:

- **نعم؟!!**
- **أقول لك كبر دماغك و" فكّك" من أفكارك المتحفية المتعفنة**
- **ماذا تقولين؟..أنا لا أكاد أصدق أذنى**
- **لاياخويا..صدقها..يلا خذ بعضك وتفضل بالسلامة والقلب داع لك**
- **أهكذا تريدين أن أنصرف دون أن أتحدث مع والدك الذى هو ولى أمرك ووكيلك؟**
- **هل جئت الى هنا كى تتحدث معى أم معه؟**
- **أنا أتبع العرف والتقاليد**
- **وهل تعتقد أنه يستطيع أن يجبرنى على قبولك ، وحتى لو استطاع فهل تقبل هذا على نفسك؟**
- **لا أعرف ماذا أقول لك**
- **لاتقل شيئا يا شيخنا.مع السلامة. ربنا يكفينا شركم خربتم البلد**

عندما وجدته يتلكأ فى مغادرة البيت دفعته فى ظهره برفق ضاعف من ارتباكه وجعل يسرع فى البحث عن الباب وهو يطنطن بكلمات غير مفهومة.

هؤلاء الظلاميون يزيدون الحياة جهامة وضيقا ويفرون من أسباب اللهو البرىء والسرور الطبيعى، مثلما يفر المرء من الوباء. يأبون إلا أن يزيدوا هذه الحياة الحافلة بالمتاعب والهموم بلاء على بلاء وكدرا على كدر.

****

فى الفصل الثانى من مشروع الكتاب سأتناول عريسا آخر بالحكى على طبيعتى دون أن أعبأ بأى شىء أو أن أضع أحدا فى الاعتبار.

****

لو لم أعرفك يا "بيبى" لكان من السهل علىّ أن أختار رجلا من بين عشرات الرجال الذين طرقوا بابى.أنت مختلف ياحبيبى . أنت عندى الرجل النموذج. لست أدعى أنك مثالى ملائكى منزه ، لكنك بأخطائك وذنوبك وزلاتك تبقى سيد الرجال بحسن خلقك وجزيل عطائك وطيبة قلبك وقدرتك على حمايتى. تبقى عندى يا "بيبى" نسيما يهفهف فى قلبى كأمنية غالية. جعلت منى ابنتك وصرت تدللنى ب"مشمش" ، وجعلتنى أمك وصرت ترفق بضعفى وتقدس حنانى. جعلتنى صديقتك فصرت مستودع أسرار حياتك الذى يستحيل على إنس أو جن أن يطلع على خباياه. أنت روح شفافة ترفرف فى سماء عمرى. رغم غيابك وطول انتظارى فإننى أجلس معك فى الليالى المقمرة على شاطىء البحر وأنت تحتوينى بذراعك وتحت جناحك. يناجينى طيفك الجميل بأعذب الألحان، وينهل كلانا سلافة الحب من أعطاف حبيبه. بيبى ومشمش سوف يلتقيان الى الأبد كلما تنفس الصبح وهامت أرواح الملائكة فى ضياء الفجر. لو هبت عواصف الدنيا لتجرف معها العامر واليباب فلن تقوى أبدا على أن تمس حبنا الذى سيصمد أمام الأنواء سنديانة ضخمة الجذع معروشة الفروع وارفة الأفنان.

****

– 3 -

لست امرأة ضعيفة. أنا أعرف أسرار الجسد ربما أكثر من كثير من الفتيات. حين أذهب اليه أعرف لذة الفاكهة جيدا ، وأعرف غيبوبة الشبق ومتعة الحضور الأنثوى حين أقذف بمائى الحار. لى صديقة متزوجة منذ عدة سنوات. مارست الحب مع زوجها ومع عشاقها مئات المرات. قالت لى انها لم تعرف لذة الزواج الا بممارسة الحب مع المحبوب الذى استطاع أن يفجر أسرارها برجولته ، وذلك بأن جعلها تأتى معه فى نفس اللحظة، وارتجف جسدها بالوصول الى الذروة، حيث ابتهجت الرغبة مع الشهوة فى لقاء حميمى. قالت ان الرجل لايغوى المرأة وإنما يقودها الى برزخ أسرارها الفاتن بعد أن تقوم هى بإغوائه مهما اعتقد بغير ذلك.

الجنس جنة أنا محرومة منه ، لكنى أعرفه كما لو كنت قد مارسته. الله فى كل الديانات جعل الجنس هديته الغالية ، فلعل له حكمة فى أن يحرمنى حتى الآن من هذه الهدية. الملائكة فقط لايعانون من الحرمان.

لى صديقة أخرى تعيش لياليها فى البكاء. تذرف الدموع حزنا وحسرة على غياب الضمة الذكورية والضغطة الذكورية. تحلم ليلها ونهارها بكف رجل تربت على صدرها وظهرها بحنان خاصة فى المساء. كلما مرت بتجربة كانت نهايتها الدموع. الغريب أنها لاتظهر ضعفها لأحد ، وإنما تستبدل به كبرياء وعجرفة وتعال على الرجال. لو تركت نفسها على طبيعتها لاكتشفها رجل يقدر فيها الرقة والضعف والأنوثة فيحل عقدتها ويحيل دموع حزنها الى دموع فرح رغم ما كتبته على حائطى بالفيس بوك من منطقة لاوعيى بعيدا عن مقاييس العقل والمنطق.الغريب فى الأمر أن الموت فى النهاية يحصد العانس والمتزوجة والأرملة والمطلقة دون تفرقة.

واذا كان هذا عن صديقاتى ، فأنا – عن نفسى - لا أتعمد إخفاء مابداخلى ، غير أن هناك مسائل داخلية يستحيل الإفصاح عنها ، مثلما يستحيل انكارها أو استنكارها، فأنا انسانة من لحم ودم ، لو خالفت الفطرة لكنت من الشواذ ، ولو أفصحت عن حبى الطبيعى للرجال بغير مواربة لالتهمونى بلا رحمة. منذ أن أغوت حواء آدم ولا مفر من ممارسة الجنس بين الرجل والمرأة بخجل أو بدون خجل. من الطبيعى والأفضل أن تمارسه الأنثى بحيائها الفطرى حتى يزداد الرجل اقبالا عليها لتستقبل منه البذرة التى تهب الحياة.

كان الجنس مقدسا من قديم الأزل حتى جاءت بعض المعتقدات فحولت المقدس الى دنس، وفيما كانت آلهة الخصب عند القدماء تهب جسدها الالهى للرجال لكى يكون موسم الخصوبة وافرا وغزيرا، وفيما أصبحت الفتيات فى المعابد القديمة بغايا مقدسات ، أصبحن راهبات ،لايقربن رجلا فى حياتهن ليظل موضع عفتهن طاهرا لايمسه رجل ، فأى عذاب هذا!!.. أنا أرفض تقديس بعض القدماء للجنس مثلما أرفض تدنيسه عند البعض الآخر. هو عندى أمر فطرى وحاجة طبيعية لاستمرار الحياة كما أرادها الله ووضع لها قوانين ضابطة. غير ان رجال العمائم والذقون فى كل الأديان قد نزعوا عنه حقيقته فجعلوه مكبلا بالقيود والمحظورات بحيث أصبح مرغوبا عند المرأة عن ذى قبل ، فأصبحت تحترف الالتفاف حول الأعراف والمفاهيم المتداولة لتمارسه كيف تشاء بحيث تبدو فى عيون الجميع شريفة عفيفة طاهرة، وهى تعرف أن كل هذه الكلمات كالهاموش ضئيلة لاقيمة لها.

****

فى طفولتنا قرأ والدينا الفاتحة معا وقالوا كريم لمشيرة ومشيرة لكريم. لم يخطر ببال أحدهما فى تلك اللحظة أنه سيفارق الحياة قبل أن يشهد زفاف ابنه أو ابنته.

نلعب معا على الشاطىء نجمع القواقع ونبنى من الرمل البيوت. الأهل والجيران وأبناء الحى كلهم كانوا يعلمون بقصتنا. لم يكن غدر الزمان واردا بخاطر أحد ، ولا تقلبات الدهر ولا ما يخفيه تعاقب الأيام.

تتوقف ذاكرتى عند لحظة الفراق. تصاب بالشلل التام ، فلا أعرف كيف أو لماذا كان. الذى أعرفه أن له نهاية حتمية لابد آتية فى القريب بإذن الله ، وأننا سنلتقى من جديد. نتعاتب ونتصارح ثم نختم حواراتنا بالقبلات والأحضان والابتسامات السعيدة والأمل فى مستقبل بهيج. كنا اثنين فقط ، لكن خيالنا الجامح كان يجعل منا خمسة أو عشرة كى نستطيع أن نلعب "عسكر وحرامية" ، حتى أقبع فى حضنك حين تقبض على وأنت العسكرى. أما حين كنا نلعب "عروسة وعريس" فلم يكن خيالنا يسمح بوجود أحد غيرنا حتى لا يكون هناك عازل ولايكون حسود. لم يكن الجنس قد اقتحم حياتنا بطبيعته الفطرية ، وإن كانت قوة خفية تقوم بدوره فى صمت فتمدنا بلذة غامضة لا تقل فى متعتها عن لذة الجنس الفطرية.

كانت أغلب جلساتنا على الشاطىء خلف كشك "بلبل" الذى يبيع المشروبات والسجائر ومعدات الصيد. ظهر الكشك مواجه للبحر مباشرة وله مصطبة متوسطة الارتفاع يسهل علينا القفز للجلوس عليها. كثيرا ما تقاسمنا معا زجاجة واحدة من المياه الغازية بضم ما أملكه الى ما تملكه من قروش .

كنا جزءا لا يتجزأ من الحياة الشعبية المحيطة بنا فى وداعة آسرة متوحدين معها فى لوحة كونية بديعة من صنع البديع. الفلايك الصغيرة. شباك الصيادين. مناشر المايوهات. وحدة خلع الملابس. الغطاسين. الصبية الذين يصطادون السمك بالبوص. صيادو الجرافة وهم يسحبون الشبكة الطويلة والسمك يتقافز من جوانبها بطاطة ومرمار وشراغيش وجلنفيش. النوارس تحوم حول الصخور والأعشاب مصدرة أصواتا نعشقها ونقلدها ونضحك من أعماقنا البريئة. رائحة البحر تملأ خياشيمنا باليود والملح. رذاذ الماء المتناثر علينا من تصادم الأمواج. الكواتر ذوات القلوع تتسابق فى البحر فى تنافس جميل. شباب يتدربون على المصارعة فوق رمال الشاطىء وآخرون على الكمباز. الكبار يهددون لاعبى الراكت حين تسقط الكرة الكاوتشوك على رؤوسهم. ننظر الى بعضنا البعض فى سعادة لا نعرف ولا نريد أن نعرف مصدرها ولا إلى متى ستستمر جامعة بيننا فى حب لايعرف الا البراءة.

فى حضور اخوتنا الصبية كنا ننزل البحر معا فى الفجر ليعلمونا السباحة قبل أن يزدحم الشاطىء. كان عبد اللطيف أبو هيف وحسن عبد الرحيم بطلا المانش العالميين يدربانا على السباحة وهما يجلسان على الشاطىء. لا أندية فخمة ولا اشتراكات سنوية. خرج من أحيائنا الشعبية أبطال سباحة عالميين . كان من العيب بل من العار على ابن بحرى أو بنت بحرى الجهل بفن السباحة فى الغريق.

طالما نصحتنا أمهاتنا باللعب على الشاطىء وعدم التغول بداخل البحر خوفا من الدوامات التى ابتلعت كثيرا من رفاقنا ورفيقاتنا ممن تغلبت جرأتهم على حرصهم ، فذهبوا وعلمونا لوعة الفراق منذ الصغر ، حين نفقد الأحباء فلا يعودون أبدا وعندما نسأل عنهم يقال لنا انهم"صعدوا الى السماء" وأحيانا"فى الجنة"، أما مصيرهم الحقيقى فلا يعلمه الا الله.

هناك فراق آخر كان يفرض نفسه علينا بفعل دوامات الزمن لا دوامات البحر. بين الحين والآخر كانت تختفى صبية من صبايا الحى اللاتى يشاركننا اللعب فى الزقاق أو الحارة. نسأل عنها فى حيرة وألم لنعرف أنها ذهبت عند زوجها وأنها قد أصبحت امرأة وسوف تصبح أما ، ولن ترجع أبدا الى الحارة ورفاق الحارة، فتلك أيام مضت ولن تعود.

المدارس لم تفرق بيننا. كان الأطفال بناتا وبنين يجلسون معا فى فصل واحد. لست أدرى لماذا فصلونا عن بعضنا عندما كبرنا. لكننا لم نعترف بما فعلوا فكنت أنتظرك حتى تنتهى حصصك أو تنتظرنى حتى تنتهى حصصى ، لنلتقى ونمشى معا الى بيتينا متشابكى الأيدى فى طمأنينة لاحدود لها تجاه الزمن والحياة دون أن نفهم أو أن نحاول فهم مغزاها.

لما كبرنا تعلمنا أنه لابد لكل وصل من فصل ، ولكل قرب من بعد ، وتلك عادة الله فى العباد والبلاد. لامفر اذن من شجى فى القلب وغصة فى الحلق وهلع وجزع وشغل بال وكرب نفس ،لاتزول جميعا الا برجعة المحبوب، وأنت راجع لاجدال . أنا على يقين من ذلك ياحبيبى.

****

– 4 -
فصل ثان من مشروع الكتاب
****

رأسه صغير مستدير.رقبته كرقبة نعامة. عيناه زائغتان لاتستقران فى اتجاه. بعد المصافحة والتعارف جلس بين أبيه وأمه كطفل وديع. لو أردت أن أختصره فى كلمة لوصفته بالمنبهر. دهشة طفولية تستبد بمعالمه تجذب تعاطف من يخاطبه. هم جيران لنا يسكنون فى فيلا كبيرة لها حديقة واسعة. يرانى كل يوم فى طريقى الى المعهد. ينظر الى على استحياء. يهم أحيانا بإلقاء تحية الصباح على لكنه لا يجرؤ. لأول مرة أرى مخلوقا لا تضفى الثروة عليه ثقة وإقداما على الحياة والناس بشجاعة تصل عند البعض الى الغرور والتهور.

المبدأ نفسه لايجد عندى القبول ، الا إرضاء لأبى وأمى. أن يأتى رجل بأسرته فى العام 2017 من الميلاد طالبا الارتباط بامرأة ليعيش معها مدى الحياة وهو لايعرف شيئا عنها غير شكلها. مع ذلك فالناس يعتبرونها وسيلة كريمة تناسب عائلات الطبقة المتوسطة التى مازالت تتمسك بالأعراف القديمة. انى أرى فى هذا الأسلوب مايشبه التجاهل لكيانى كإنسانة. عائلة تطلبنى من عائلة. مسخرة!!..أريد من يطلبنى من نفسى فأستجيب له أو أرفض بكل حرية. هذا هو الأمر الطبيعى. فكرت فى أن تحوى صفحات كتابى أسماء كل من تقدموا لى مع نبذة عن شخصياتهم وظروف تقدمهم لى وعن أسباب هروبهم بجلدهم منى ونجاتهم من الارتباط بكارثة مثلى ، مع تسجيل تواريخ تشريفهم بالتقويم الافرنجى.

أكثر ما يثير دهشتى وألمى هو القلق الشديد الذى تعانى منه أسرتى لأننى قد بلغت الخامسة والثلاثين ولم أتزوج وبدأت أخطو نحو السادسة والثلاثين. قلقهم ممزوج بحزن معجون بحسرة. أصدقاء الأسرة والأقارب يعتبروننى عانسا وإن كانوا لاينطقون بهذه اللفظة أمامى بالطبع، لكنهم حين يتبادلون الحديث فيما بينهم فإنها تجرى على ألسنتهم كما يجرى عليها الريق. أما خصوم الأسرة فيطلقون علىّ لقب"البايرة" بمعنى أننى لم أعد صالحة للزواج ، أو أننى قد أصبحت فاسدة كما تعنى الكلمة فى القاموس المحيط.

أكثر ما يدهشهم جميعا ويثير تساؤلاتهم الخبيثة - أصدقاء وخصوما - كيف أننى لا أعانى مما يعانون منه من مشاعر سلبية، وكيف أننى أمارس حياتى اليومية بنجاح وفى هدوء وصفاء وراحة بال واستسلام للقدر دون أن أتخلى عن ابتسامتى. عموما فإننى لم أعد أندهش من اندهاش الناس منى منذ صباى وفى مرحلة الجامعة وحتى فى مجال عملى كأمينة لمكتبة معهد معلمات الورديان، وفى صداقاتى المتعددة من خلال وسائط الاتصال الحديثة. من المؤكد أن هناك شىء أو أشياء غريبة فى شكلى وتصرفاتى ولامبالاتى الواضحة هى التى تسبب لهم هذه الدهشة.

كلما ركزت بصرى عليه تعمد أن يكسو وجهه بملامح الجدية المصطنعة التى لاتتواءم مع خجله الواضح وغير المبرر. حظى وافر مع الرجال الخجولين لست أدرى لماذا. انتهزت الفرصة ورحت أتعمق فى عينيه وما يختفى بداخلهما من أفكار تضعه فى ازدواجية مضحكة بين "سى السيد" بجبروته وسطوته، وبين حيائه الظاهر. يتباهى فى عظمة بمنصبه الحكومى السياسى الكبير، وبدخله الضخم من أملاكه الكثيرة التى لا أعرف كيف حصل عليها، كما لا أعرف إن كان يكذب أو يبالغ فى حجمها أو ان كان صادقا فيما يدعى، خاصة أنه وضع ساقا فوق ساق حين بدأ الحديث عن قوته المادية. أردت أن أنبش فى دماغه فسألته فجأة:

- هل سمعت عن الجوارى المتأدبات؟.

نظر الىّ والده فى دهشة وريبة ، أما أمه فرمقتنى بنظرة تحتوى على جرعة كافية لقتلى من السم النسائى الفتاك. أجاب فى ارتباك:

- لا..لم أسمع

تعمدت الصمت لفترة ملحوظة وهو ينظر الى فى بلاهة ، ثم قلت:

- هن جوار تجيد الحديث وتعزف على الآلات الموسيقية وتلقى الشعر ، كما أنهن يتمتعن بأدب شديد.
- وما شأننا بهذا؟..نحن فى القرن الحادى والعشرين، وقد انتهى عهد العبيد من زمان
- هل تعلم أننى أفضل أن أكون جارية لرجل من هؤلاء الأسياد العظام الذين خلدهم التاريخ على أن أكون حرة فى هذا الزمن
- ماله هذا الزمن؟!
- رجاله أنصاف
- لاتعممى من فضلك

قالها بنصف ثقة ، فانتهزت الفرصة لمواصلة عدوانيتى:

- قل لى يا أستاذ...
- قاسم
- يا أستاذ قاسم. تقول اننا فى القرن الحادى والعشرين ، لكنك ترانى صباح كل يوم منذ عدة سنوات ، فلماذا لم تحدثنى مرة أو حتى تلقى علىّ تحية الصباح؟
- وكيف يكون ذلك ونحن لانعرف بعضنا البعض؟
- كان ينبغى عليك أن تبتسم فى وجهى على الأقل كعلامة إعجاب من جانبك حتى تلفت نظرى اليك.

تدخلت الأم بابتسامة صفراء بعد أن اضطرت للتخلى عن تكشيرتها السامة:

- قاسم ابنى أصله خجول ومهذب

الحق أنى رفضته منذ اللحظة الأولى، فكان لابد أن أضع حدا لهذه المسألة. قلت لها بجرأة وأنا أشير بسبابتى الى قدم ابنها :

- ياسيدتى ان ابنك القادم ليخطبنى لم يفكر فى مسح حذائه وتلميعه ، بل جاء به متربا ملطخا بالطين

قام الأب – وكانت عيناه خبيثتان - متظاهرا بحاجته الى الحمام متعللا بمغص فى أمعائه. ظل بداخله حتى أوشكوا جميعا على الانصراف.

كان من الطبيعى أن ينتهى اللقاء على هذه الصورة المزرية، وأن تقوم والدة العريس غاضبة مشمئزة من كيانى الانسانى البغيض ، وأن يتبعها ولدها مضطرا، رغم أنه لم يكن يرغب فى الانصراف.

استفزتنى قذارة الحذاء بصورة لايمكن وصفها بالمبالغة، لكنى فكرت فى الأمر كثيرا فوجدت أننى صاحبة حق، وأنه كان من الضرورى على هذا الغنى الغبى أن يلمع حذاءه قبل حضوره فى هذه المناسبة الهامة التى يطلبنى فيها لأعيش معه بقية العمر. المهم أن والد العريس لم يخرج من الحمام الا بعد أن طرقنا عليه الباب لنخبره أن أسرته ترغب فى الانصراف.

****

... وكيف يكون فراق وحبيبى حاضر لايغيب؟..فى دمى هو فى شراييني فى أنفاسى . فى صحوى ومنامى. فى غدوى ورواحى. فى قلبى أنت أستأثر بك وأستحوذ عليك ، فكيف بالله عليك تفارقنى ويدركنى همّ البين؟..

فى صبانا كنا نسمع عن الكبار ومنهم أقاصيص شجية عن الحب والغرام فنتمنى أن نكبر مثلهم ونعيش حياة النعيم التى يتغنون بها. غير أن بعض هذه القصص كانت نهاياتها دمع غزير يفيض من العينين وحزن عميق يطل منهما. لكننا لم نكن ندرك الأسباب إذ شغلتنا دموع الفرح عن دموع الأسى ، فكل ما نراه كان وردى اللون لاغيم فيه وكأنه حلم جميل فى أجفان عاشق.

فى صباى كان حبيبى مكتنز العضلات موفور الصحة بادى الفتوة، وكان رغم ذلك جم الحياء غض الإهاب يترقرق البشر فى وجهه ، وقريبة كانت دوما دموعه. مرة طلب منى أن أغنى له

فغنيت:"شايف البحر شو كبير..كبر البحر بحبك".. كان غنائى منبعثا من ثنايا قلبى حتى أن الورود والرياحين رقصت مع أنغامى وانتشى الزهر بها ورددتها معه البلابل والعصافير، أما حبيبى فقد سال الدمع من عينيه تأثرا.

تعال الىّ ياحبيبى. لاتغب أكثر من ذلك. دعنى بين أحضان سعادتى التى أتوهمها رغم انى على يقين من كونها حقيقة لأنها تؤكد لى قرب حضورك. أعرف أنك لاترضى أن تبدل بسرورى الحزن يوما ما ، فلست بقاسى القلب ولا غليظ الفؤاد. رويدك ياحبيبى يا أرق من النسيم تمهل ولا تهجرنى. سأغنى لك وأعزف وأرقص فتعال. تعال مهما استغرق السفر من أيام وشهور وربما أعوام فإنى بانتظار مجيئك.. هاهى بيوتنا القديمة التى عشنا بها طفولتنا وصبانا وقسطا من شبابنا، وقد تهالك معظمها وتهدم بعضها ، لكن بيتانا باقيان صامدان بانتظار المعجزة. كلما هاجت ذكرياتى أذهب الى هناك أمشى وأمشى وأتأمل وأفكر. أجلس على رصيف البحر شاخصة ببصرى الى البيوت التى صارت ساكنة موحشة بعد أن كانت صاخبة فى الليل والنهار لاتعرف الصمت والهدوء ، ثم أقول لنفسى هذه سنة الحياة يابنت.. وترد الى خاطرى أبيات قيس بن الملوح:

أمر على الديار ديار ليلى / أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى / ولكن حب من سكن الديارا

****

هناك مجلس عائلى جانبى مصغر ينعقد عقب زيارة كل عريس وانصرافه صفر اليدين. أسميه مجلس الذم. أعضاؤه الأخوان فارس وماضى والأخت وردة دلوعة الأسرة والتى أعتبرها رئيسة المجلس. كثيرا ما تأملت تعقيباتهم وآرائهم ومواقفهم من تلك الأحداث ومدى اتفاقهم أو اختلافهم معى.

كانت جلسة اليوم ساخنة، إذ انقسم الأعضاء حول صحة قرارى بطرد العريس بسبب اتساخ حذائه. قال فارس:

- ربما كان الحذاء نظيفا لكنه اتسخ فى الطريق لأى سبب

وقال ماضى بنبرة الكبار:

- أظن أن الحكم على الناس لايصح أن يعتمد أساسا على نظافة أحذيتهم

أما حبيبتى وردة فقالت:

- أنا مع أختى مشيرة فى قرارها الشجاع. مثل هذا البنى آدم – فضلا عن قذارته – إنسان مغرور، لم يحترم الأسرة القادم اليها ليطلب يد ابنتها فتكاسل أن يمسح حذاءه. هناك احتمال آخر انه انسان بخيل،سوف يبخل عليك بعواطفه مثلما يبخل عليك بماله، وأكاد أجزم بذلك بالنظر الى بقية ملبسه ، أو أنه فوضوى لن يستطيع ادارة حياة مشتركة مع زوجة سوف تمضى حياتها معه كعاملة نظافة ، ومن المؤكد أن رائحته أيضا قذرة وملابسه الداخلية قذرة ، وربما لم يستحم منذ عدة أسابيع.

كان من نصيبى حضور القسط الأخير من مجلس الذم حين استمعت الى رأى وردة المنحاز لى فى تعصب واضح. أخذتها فى حضنى وقبلتها.

- دائما ترفعين معنوياتى ياحبيبتى
- أنت على حق وستين حق
- ربنا يخليكى يا أجمل وردة

****

– 5 -
فصل ثالث من الكتاب

****

هو بعينه على بك مظهر بطل الفيلم الشهير. يتقافز برعونة فى وقوفه وجلوسه. يتراقص حاجباه صعودا وهبوطا. يستخدم أصابعه فى الحديث ويديه ووسطه. قادم لتوه من السعودية محملا بآلاف الدولارات البترولية الوهابية. حين يتكلم عن دول الخليج يقول:

- عندنا هناك....

وكأن انتماءه وموطنه صار هناك. عاد من "عندهم" الى "عندنا" وقد غسل مخه وألغيت وطنيته. حتى الزى الذى زارنا به كان خليجيا لاينقصه الا العقال."عندما أشاهد رجلا يلبس جلبابا فكأنى أراه بلباس النوم". نظرت الى قدميه وقد تذكرت العريس إياه. والله كان ذلك الرجل أهون علىّ من هذا الحافى أو شبه الحافى الذى يضع فى قدميه"زنوبة" كما يفعل معظم العرب. ثقته بنفسه تعدت حدود الاعتدال ، بل تجاوزت الغرور الى السفاهة:

- سأشترى لك أفخم فيلا بالاسكندرية وأكتبها بإسمك
- سأجلب لك الأثاث بأكمله من أوروبا
- سنقضى شهر العسل فى أسبانيا
- سأضع لك وديعة بإسمك فى البنك بالمبلغ الذى تطلبينه

لن أكابر وأقول ان عروضه لم تبهرنى ولم تستثر فى الطمع بحياة مرفهة مع أراجوز مثل هذا الرجل يمكننى استغفاله ببساطة وأعيش حياتى كما أريد . لكنى تماسكت بينما سال لعاب أبى وكاد يغطس فى مقعده لشدة دهشته الممزوجة بالفرحة والسعادة فقد جاء الفرج لابنته أخيرا من أوسع الأبواب لتعيش عيشة الأميرات. أما أمى فقد كانت رائعة بحق. تجلت روعتها فى صمتها ونظراتها الثاقبة التى كادت أن تصنع شرخا فى وجه العريس ، وقد أدرك بفطرته أن أمى لم تهتز لكل عروضه الباهظة ، بل وربما كانت لاتصدقه. غمزت بعينها لأبى وهى تنصرف فتبعها كالمعتاد فى كل زيارة.

سألته بفضول:

- هل لى أن أسألك كيف عرفتنى يا سفيان بك ومن الذى دلك على عنوانى؟
- دار النشر التى تعملين بها
- كيف كان ذلك؟
- حضرت منذ شهر تقريبا لأشترى كتابا فرأيتك هناك
- وبعد؟
- دخلت قلبى منذ لمحتك وأنت تمارسين عملك بجدية واحترام
- لكنك لم تكلمنى
- بل تبادلنا كلمات قليلة خلال استلام الكتاب منك وشكرك لى
- وهل يكفى هذا كى تأتى لتطلبنى للزواج؟

قال بغرور فج:

- اسمعى يا آنسة مشيرة. أنا رجل خبرت الحياة ولى نظرة فاحصة صائبة فى الناس لاتخطىء أبدا
- ألهذا السبب دخلت قلبك أم أنه الحب من النظرة الأولى ياترى؟
- لاحب ولا كلام فارغ من هذا. أنا هنا بغرض مشروع زواج محترم
- الحب ليس كلاما فارغا ، ومع ذلك فأنا معك فى وضع حجر أساس لهذا المشروع
- كيف؟
- نأخذ وقتا كافيا لنتعرف على طباع بعضنا البعض
- لامانع عندى بالطبع

قررت أن أتخلص من تقززى منه بأن أسخر منه بطريقة من خارج الصندوق كما يقولون:

- فقط أرجو أن تعطينى مهلة زمنية حتى أنتهى من إنجاز مشروع آخر يخصنى
- هل لى أن أعرفه؟
- نعم. ولم لا؟ لقد نويت أجرب أن أستقل بمعيشتى فى سكن خاص بعيدا عن أسرتى.

أصابه وجوم أفقده النطق وتجمد كصنم فاتحا فاه. أكملت كلامى:

- لقد ربحت مبلغا خرافيا لم أكن أحلم به من شهادة استثمار، سوف أشترى شقة تمليك بجزء منه

صار يلتفت يمينا ويسارا كالدائخ:

- أنا لا أفهم ولا أصدق. هل وافق والداك على هذا الكلام؟

واصلت استفزازه:

- وهل من الضرورى موافقتهما ؟
- وهل هناك جدال فى ذلك؟
- حتى اللحظة لم أستشر أحدا منهما. أنت أول المعلنين بهذا الخبر الحصرى!

صرخ بعصبية وقام واقفا.

- هذا والله كفر
- الكفر هو الشرك بالله يا أستاذ جرى لك ايه؟ اجلس وناقشنى فى ايجابيات قرارى وسلبياته لو كنت تريد أن تتفاهم معى حتى ننجز مشروع الزواج ومعه مشروع الانجاب أيضا لو توافقنا

عاود صراخه مناديا أبى:

- يا أستاذ جميل. تعال اسمع ماذا تقول ابنتك التى تحسب نفسها فى أوروبا أو أمريكا.

جاء أبى مهرولا مرتابا حين كنت أقول لسفيان:

- ولماذا تقبلون أن تستقل فتاة الغرب بحياتها عن أسرتها وتستنكرونه علينا؟ هل فتيات الغرب أفضل منا فى شىء ، أم أنكم تصرون على تبعيتنا لكم واستعبادكم لنا؟..

نظر الى فى غضب متزايد.خيل الى أنه يريد أن يضربنى أو يخنقنى. تساءل أبى فزعا:

- ايه الحكاية ياجماعة؟!!

...

بعد انصراف العريس الى غير رجعة، نسى أبى ما كان من أمره وقد أصابه الذهول من أمرى حين علم بفكرتى الجديدة المجنونة التى طغت على غضبه منى بشأن"تطفيش" العريس المحترم!.. قال بثبات شديد محاولا بصعوبة كظم غيظه:

- اسمعى يا مشيرة
- تأمرنى يا والدى
- اعلمى أن دخولك هذه الشقة بغير زوج لن يتم الا على جثتى

حسن نيته جعله يصدق ملعوبى . اذن فلأتمادى...

- لكنى اشتريتها بالفعل يا أبى
- ودفعت ثمنها؟!
- نعم؟!!
- وكيف جرؤت على القيام بإجراءات التسجيل وحدك دون الرجوع اليّ؟
- لأنى أعلم يقينا أنك سترفض

كاد أن يتوسل الى:

- لماذا تريدين أن تتركينا ؟ هل فعل أحد منا ما أغضبك الى هذه الدرجة؟
- أبدا والله ياابابا
- فما الذى ينغص عليك حياتك معنا الى هذه الدرجة؟
- العرسان ياوالدى. العرسان. كرهت حياتى بسببهم
- وماذا أفعل لو تقدم اليك عريس مناسب؟

- ترفضه على الفور أرجوك
- لابد أن هناك رجل فى حياتك تخفيه عنا
- هو فى خيالاتى وأحلامى وليس فى حياتى
- لن تغادرى البيت بأى حال ، والشقة ستغلق لحين أن يتقدم لك عريس..وهى عموما ورقة رابحة تلعبين بها لوشئت التعاون معه
- ارحمنى يا أبى . أنا لا أريد لعبا بأوراق. أنا أريد أن أشعر بكونى انسانة محترمة لابضاعة معروضة فى مزاد. بالعربى لقد اخترت ألا أتزوج أبدا وسأقضى بقية عمرى عازبة.
- مجنونة
- فعلا ، لأننى كى أكون عاقلة لابد أن أجن!

...

اجتمع مجلس الذم كعادته بعد انصراف العريس. كان فارس نموذجا متكاملا لحزب الرجال. دائما لاتعجبه آرائى فيقول مرة:

- مشيرة لايعجبها العجب ولا الصيام فى رجب

ومرة يقول:

- ستظل تتدلل هكذا على العرسان وتسخر منهم حتى تعنس

أو يقول:

- أنا أتعجب من سلبية أبى تجاه نوازعها وشطحاتها الغريبة..لو كنت مكانه لعاملتها بقوة وحزم حتى تتخلص من عقدتها تجاه الرجال

أخى الأصغر ينحاز أحيانا الى آراء أخيه ، لكن ليس من منطلق التسيد الذكورى المزروع فى ضمائر الرجال الشرقيين ، وإنما من باب التعاطف معى أوالخوف على مستقبلى، الا أنه فى معظم الأحيان لايهتم بالدخول فى جدل حول هذه المسألة إذ تم استحواذ الكمبيوتر والأجهزة الحديثة على عقله تماما. رغم ذلك فقد أبدى رأيا واضحا هذه المرة حين قال:

- هذا الرجل "ممروع" بفلوسه ويعتقد أنه يستطيع بها شراء أى شىء

سألته وقد لفتت نظرى ايجابيته هذه المرة:

- هذا يعنى أنك تؤيدنى ياماضى
- الى حد ما

هكذا هو لن يتغير..

حسمت أمر المجلس رئيسته حين قالت بقوة وحسم:

- فلوس البترول الخليجى كله لن تستطيع أن تشترى مشيرة ومن مثلها

انتفضت واقفة. قلت لها بانفعال حميم:

- ينصر دينك يا أختى. والله ما نابنا من هذه الفلوس سوى خراب أمخاخ الشباب وخضوعهم للفكر المتخلف

قال لى فارس:

- فرصة لاتعوض حتى تطرحى علينا خطابا سياسيا تستعرضين فيه ثقافتك يا أستاذة
- والله يا فارس أنا أقول الحقيقة. لقد كان ضرر أموال الخليج التى جاء بها المصريون أكثر بكثير من نفعها على المستوى الوطنى

وقالت وردة:

- والله لو جاءنى مثل هذا النطع لرفضت مجرد مجالسته. لقد أعماه الثراء عن أبسط مبادىء التعامل المتحضر مع المرأة

سألها ماضى:

- كيف؟
- ياحبيبى لقد جاء ليشتريها لا ليتزوجها

ضحك متخابثا:

- **عموما أنا فهمت ملعوبها الذى صدقه أبى و لم يدخل علىّ حين ادعت أنها ستتركنا وتستقل بمعيشتها ، وأدركت أنها كذبة مصطنعة كى يغور من أمامها دون تردد.**

وقال فارس بجدية شديدة:

- **اسمعى يامشيرة. يجب أن تكفى عن سخريتك من عرسانك وألاعيبك معهم. أنت الآن صغيرة وجميلة. تتدللين وتتمنعين ، لكنك ستندمين فى المستقبل على أفعالك هذه . سيقولون عنك أنك فتاة معقدة.**

لفت نظرى أن أمى لم تبد رأيا حول هذا العريس أو عما فعلته به. سألتها بفضول:

- **ايه يا صابرين؟.. لا أسكت الله لك حسّا**
- **ماذا تريدين أن أقول وقد فركشتى الجوازة بمسخرتك فى الرجل؟**

كنت أشك فى أنها صدقت أكذوبتى هى الأخرى!!

- **هذا مايستحقه من وجهة نظرى**
- **وجهات نظرك هذه سوف تؤذيك فى النهاية لأنك مصرة على استبعادنا فى هذه اللقاءات ، ومن الجائز أن يكون حكمك خاطئا**
- **ما رأيك لو رقصت لك على أغنية فريد الاطرش: "تؤمر عالراس وعالعين"؟**

****

-6 -

عندما أشرفت على سن البلوغ كنت أجهل التحولات التى تحدث فى جسدى. عرفت فقط أنه يجب على أن أستر فخذى عندما أجلس ، وألا أتكلم الا عندما يسمح لى، وأن أسكت غرائزى ورغباتى الجنسية ، وألا أركب البيسكليت أو الحصان حتى لا أفقد عذريتى. بدأت الأسرة فى اتخاذ الخطوات التى تراها جوهرية فى تربيتى بهدف أن أصبح أما صالحة تحت الضغوط والممنوعات. لايحق لى أن أكون أنثى. امرأة. علىّ أن أنتقل من العذرية الى الأمومة دون أن ألتقط أنفاسى. لايحق لى الشعور بالامتلاء الا عندما ألد لهم الصبى، فهو الذى يجردنى من جسدى ومن ذاتى حتى أفقد هويتى وأصبح"أم فلان".

قرأت بعد ذلك كثيرا فى علم الجنس حتى توصلت فى النهاية الى أن لغة علمائه تكون دائما مبهمة محيرة، ذاتية غير واضحة رغم موضوعية العلم المفترضة. انهم ينكرون الفروق الجنسية كما ينكرون خصوصية النساء فى أجسادهن الجنسية. يقول الدكتور هيرشفيلد " ان الرغبة فى الاغتصاب كامنة فيما قبل الوعى عند الكثيرات خاصة الهستيريات". يجعلنى هذا العلم وعلماؤه انسانة مريضة لو أعلنت عن رغبتى فى اللذة أو شعرت بها.هكذا أوصف كامرأة بكل بساطة أننى مريضة وشريرة ومتلقية وسلبية غير فاعلة. أوصف أيضا عند بعضهم بأننى مازوكية دونية خبيثة مجنونة.

الرجل وحده مسموح له أن يتكلم عن قدرات جسدى فى الحياة الجنسية علميا ، وأن يضع النظريات والتعميمات كأنه هو وحده من يملك مشاعر المرأة وأحاسيسها ولذتها. هو رجل علم. أما أنا فممنوع على أن أتكلم. أن أبحث عن ذاتى الأنثوية التى تظل مشوهة كما صورة جسدى وحياتى الجنسية، مادمت لم أشارك بنفسى أو بغيرى كامرأة فى دراستها وتحديدها.هو فقط الذى يشرع ويحدد كيف ومتى والى أى حد فى أى شىء. أما كونى امرأة تريد أن تدرس الحياة الجنسية الأنثوية فهذا ممنوع لأنه شىء معيب.

كلما تعمقت فى دراستى لاحظت أن الرجل قد مارس على الدوام حق تملك جسدى أنا وغيرى حتى لم تعد توجد رؤية حرة للمرأة عن ذاتها. كونها أدخلت فى لاوعيها النماذج والمفاهيم الذكورية، وصارت بدورها بعيدة عن أنوثتها، غريبة عن ذاتها ، تعيشها فقط ضمن الصورة التى رسمها الفكر السائد المسيطر.

ان جسدى حين لقائه برجل سوف يكون راضخا لرغبة لا أملكها بقدر مايملكها ويريدها هو، مما سوف يجعلنى منذ الدقائق الأولى للممارسة تابعة له لا أعرف ماذا أريد، حاضرة لتلبية أى طلب من طلباته ، فأنا عنده شىء يأخذه كموضوع للذته فحسب.

****

طالما حكيت لك فى فورة الشباب عما كانت قريناتى تتحدث فى مباهاة وفخر عن علاقاتهن الغرامية بالشباب. بلغت الجرأة بمعظمهن أن يحكين تفاصيل العلاقات الجسدية التى كن يمارسنها للحصول على المتعة أسوة بالرجال، من دون أن يسمحوا للعلاقة بالاكتمال حتى يحتفظن بعذريتهن التى هى اهتمام الرجل الأول والأخير. كن يسخرن من تفاهة الآباء وسطحيتهم حين يتباهون بعذرية بناتهم ليلة الزفاف، بينما الواحدة منهن تكون قد مارست هذا النوع من الجنس مع العشرات من الشبان. فى بعض الأقاليم يطلقون النار والزغاريد ابتهاجا بهذه المناسبة الزائفة ، فقطعة القماش الدامية هى دليل الشرف والعفة ولا دليل لديهم سواها على أنها لم تلامس رجلا من قبل.

كنت أشعر بالحياء الشديد حين تدور أمامى مثل هذه الأحاديث. لم يكن وازعى لرفض مسايرة صديقاتى دينيا بالدرجة الأولى، وإنما كان جزءا من تكوينى النفسى والأخلاقى من جهة ، فأنا لا أعرف السرقة ، وقيام مثل هذه العلاقة فى الخفاء هو نوع من السرقة التى يستحيل اعلانها على الجميع. قيام مثل هذه العلاقة دليل على أننى لا أحترم جسدى وأعرضه للعبث مع من لايستحق، فضلا عن أن اللذة المسروقة والمتعة المخطوفة لن تحققا لى – فى اعتقادى - شيئا من الاشباع الغريزى الذى تهدف اليه العلاقة الكاملة

الحقيقية والمشروعة. من جهة أخرى فقد كانت طمأنينتى فائقة لمجرد وجودك فى حياتى، لأنى أحتجز كل متعتى لك وأدخر كل لذتى لمتعتك معى حين نختلى فى غرفة العرس. انى أرى فى امتناعى عن تلك العلاقات غلبة لعقلى على شهوتى وكبحا لجماح نفسى عما قد تطمح فيه وتتهيأ له فهى بطبعها أمارة دائما بالسوء ، ولايمكن أن أرتضى لنفسى لذة ذاهبة لاتذهب الندامة عنها. أما من المنظور الدينى فالمسألة قد حسمها خالقنا الذى جعل منا الذكر والأنثى وقال لنا ان من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة مأواه.. وأنت يا حبيبى مثلى تماما..لا ، بل أنا التى مثلك ، فأنت الذى تعلمت العفة من عفته والطهارة من طهره يا أغلى الناس. أنا لا أنسى أبدا يوم أن قلت لى:

- لا أعرف كيف يقبل شاب على نفسه مثل تلك العلاقة البهيمية العاجلة التى لاتحكمها عاطفة ولا يقرها شرع.
- ولماذا يقتصر لومك على الشاب فقط ما دامت شريكته فى الفعل شابة؟
- لأنى أرى اللهو دافع الشاب الحقيقى ، أما الشابة فدافعها انتزاع حقها المستقل فى المتعة من يدالرجل، وهو فى رأيى دافع افتراضى
- هل أفهم من هذا أنك متعاطف مع المرأة؟
- بل انى مشفق عليها .

شردت قليلا ثم قلت لى فيما يشبه التوسل:

- ليتنا نغير الحديث فى هذا الموضوع السخيف

****

أنا لا أستطيع أن أقول بحرية ما أرغب فى قوله، فرغبتى بالدرجة الأولى ممنوعة لأنها مختلفة عن رغبة الرجل ولغته، فهى مغطاة بمنطق واحد يسيطر على العالم الحالى منذ الإغريق. يدفعنى هذا المجتمع الى أن أستمد رؤية العالم من الذكر لأن الذكور يسقطون كل ملذاتهم ورغباتهم على العالم الأنثوى. لذة المرأة عندهم لا ترتبط بالنظر بقدر ما ترتبط باللمس ، وهذا مايخلق منا نماذج مازوكية منسحقة ، بل ان عالمة فى الجنس من الغرب تؤكد على أن هذه المازوكية الأنثوية تعد من أهم مفاتن المرأة الضرورية لذاتها من حيث أنها منقوشة فى ماهية أنوثتها ،يسعد الرجال بها ويتمتعون بممارسة ساديتهم عليها إذ يلتقى السالب بالموجب.

فى المكتبة سمعت حديثا دار بين زميلتين أمامى ودون مواراة. كل ما فى الأمر أن الشاكية كانت تتحدث بصوت مسموع وكأنها تتكلم فى أمر عادى لاخصوصية فيه. كانت تقول:

- انه يضربنى مرددا أن ضرب المرأة مشروع .
- كذاب. أنا سمعت بأذنى مفتي مصر السابق الدكتور علي جمعة يقول في برنامجه الفقهي «الله أعلم» على إحدى القنوات الفضائية: " ضرب المرأة من الكبائر، والطلاق أفضل وأهون إذا وصل الأمر إلى الضرب المبرح للزوجة. وأكد أن ضرب المرأة جريمة، وأن التفاهم والتعامل بالحكمة مع الزوجة أو حتى هجرتها، أهون بكثير من ضربها، لأنه يهدم الأسرة".

تواصل الشاكية باقتناع تام:

- يهيننى وينتقدنى بأسلوب جارح ويشعرنى بأننى ناقصة فى كل شىء.

كنت أغلى من الغيظ وأنا أواصل الاستماع الى هذا الحوار :

- أقنعنى أن بى نقص بالفعل حتى جعلنى لا أتجاوب معه جنسيا ، بل أشعر بقرف شديد
- وإلام تنتهى المسألة؟
- تنتهى بأن يضربنى ويغصبنى على أن أعمل معه هذا الشىء ، ويقول انه لابد أن يأخذ حقه الشرعى منى..لقد أوصلنى شعورى بالنقص الى رفض جسدى كأنثى !

هكذا يتضح أن هناك ميلا عاما للتأكيد على أن المرأة كائن ناقص وغير قادر وعليه أن يرضخ للعذاب الذكورى فتتربى المرأة على كبت رغباتها وإنكار جسدها، وبعد أن تعتاد على سادية الذكور من خلال القمع الجنسى الفرويدى ، يصبح من الصعب أن تشعر بالاشباع ولا يبقى لها

سوى أن تكون وعاء للحمل والانجاب والرضاعة وتربية الأطفال والخضوع لأوامر الزوج ونواهيه فى استسلام تام حتى نهاية العمر.

لكنى أنا مشيرة جميل الاسكندرانى على ثقة تامة بنفسى ، فأنا لدى الجرأة الكافية كى أواجه هذا المجتمع الشرقى الرجعى المتراجع بأن أكتب باحثة عن حقى فى جسدى، رغم أن ردود الفعل المنتظرة ستجتهد فى رفضى ونبذى وإنكارى، بل وتحويلى الى عاهرة أو مسترجلة. مع ذلك فلن أرضخ يوما كما رضخ غيرى، ولن أهرب أو أنضم الى معسكر الفكر الذكورى العالمى لمجرد أن يقبلنى الرجل والمجتمع.

تجعلنى بعض الأفكار التى يروجها بعض رجال الدين العرب أتميز غيظا ، فهى أفكار أقل من أن توصف بالشذوذ ، فأحدهم يقول:

- إن الأمهات الصالحات هن الباردات جنسيا فقط

ويقول آخر:

- ان المرأة لاتشبع أبدا فعطشها للمجامعة ليل نهار لايرتوى

هؤلاء المخابيل يعادون الطبيعة وينفرون من التقدم ولايجدون الراحة والعزاء إلا فى نفى الأنثى وكانها غير موجودة ولايمكن أن توجد ، فلا روح لها ولا ماهية. المرأة عندهم لاشىء!. ولست أعرف ماذا يمكننى أن أفعل تجاه أمثال هذه المخلوقات غير أن أوليهم احتقارى الشديد..

وما زلت بصدد بحثى الدؤوب فى الدراسات الجنسية المنشورة على النت وفى بعض الكتب حتى أفهم من هم هؤلاء الرجال الذين يتعاقبون على بيتى بغرض سحبى الى دوامات عقدهم النفسية. وقد شرعت بالفعل فى تحرير مسودة كتابى عن نماذج الرجال الذين التقيت بهم والذين يعبرون فى مجملهم عن كل ما أشرت اليه من أفكار راسخة فى أدمغتهم عن المرأة.

ولقد لاحظت أيضا فى معرض اطلاعى على عالم الرجل أن الحديث الجمعى عنه لايحصر شخصيته فى ذكورته بالمعنى البيولوجى ، بينما يختزل هذا الحديث بالمقابل عن شخصية المرأة فى أنوثتها، فيتم تغييبها عن البعد الاجتماعى لقاء تضخيم البعد الجنسى بأن تختزل كل الصفات الانسانية المتعددة للمرأة فى أنوثتها فقط.. شىء مقرف والله!..

كلما شعرت بالفجوة الكبيرة القائمة بين المجتمع المحيط بى وبين ما أراه بشأنى كفتاة لم يواتيها الحظ حتى هذه اللحظة بالعثور على رجل تشاركه الحياة، اتجهت الى محاولة فهم طبيعة العلاقة التى أوجدت الفجوة بين الطرفين. أنهمك فى البحث كما لو كنت أعد دراسة أكاديمية عن الرجل والمرأة وعلاقة كل منهما بنفسه وبالمجتمع. شريط جوجل للبحث أصبح شيئا هاما فى حياتى اليومية. أجمعت بحوث عديدة على أن المرأة ليست مخيرة فى معظم الأحوال فى التحكم بجسدها وفى وظيفتها الانجابية بالنسبة لتحديد النسل أو اتخاذ قرار الاجهاض..ويبقى القرار النهائى غالبا بيد الزوج باعتباره الناكح الإيجابى وباعتبار المرأة هى المنكوحة ذات الوضع السلبى.

تعرفت على حالات الكثير من النساء اللواتى يعشن الكبت الجنسى بسبب فقدان الأزواج أو غيابهم فى بلاد المهجر أو غياهب السجون، ولا حل لهؤلاء حسب تلقينات رجال الدين والدعاة المنتشرين فى القنوات الفضائية، سوى الصبر والاستعانة بالله والاكثار من الصلاة والصوم لحفظ الأعراض. ورغم نفورى الدائم من هؤلاء المدعين – فى معظم الأحوال - الا أننى أتفق معهم فى أن اللجوء الى السماء مع التمسك بالصبر والفضيلة هو الحل الأمثل لحالتى ولحالة كل فتاة فى موضعى.

كما كشفت لى تلك الدراسات عن بعض الأساليب التى تلجأ المرأة اليها أحيانا للهروب من الضغوط النفسية والمراقبة والعقاب العائلى ، فى ظل مجتمع يقدس العذرية ويؤثم الجسد الأنثوى. من ذلك سعى عدد من الفتيات الى إجراء عمليات اعادة غشاء البكارة ، لا امتثالا للقوانين الأخلاقية والقيم الدينية التى لم تعبأ بها من الأصل ، وإنما خوفا من جرائم الشرف التى تملأ يوميا صفحات الجرائد.

الرجال عندنا يلزمون النساء – دون أن يلزموا أنفسهم – بالعفة فى مرحلة ما قبل الزواج وبعدها، ويطالبهن بإثبات هذ العذرية. يتغاضى المجتمع بكل بساطة عن عفة الرجال، فممارساته الجنسية غير المشروعة ينظر اليها باعتبارها من مقتضيات الفحولة وإبراز السيادة والقوامة، الأمر الذى لايمكن أن يسمح به للمرأة والا اتهمت بفساد الدين والأخلاق. هذا مجتمع يحكمه التراتب الطبقى والجنسى والمذهبى والدينى، وأتحدى أن يثبت لى أحد مخالفة واقعنا الشرقى لهذا الادعاء.

ان أكثر ما يؤلمنى ويتعسنى أن يعتقد البعض – خاصة من أقرب الأقربين والمقربين – أننى أبالغ كثيرا فى الاعتداد بأنوثتى وبحقى فى أن يحترمها الجميع. يرون فى أفكارى هذه خروجا عن المألوف ، بل يعتبر البعض أن النرجسية الشديدة هى الباعث والمحرك المغذى لها ، وأنها تسبب انفصاما يصنع شرخا بينى وبين مجتمعى ، قد ينتهى بى الى العزلة والاكتئاب والتقوقع.

****

كنت تعجب دوما من صراحتى وقدرتى المطلقة على المواجهة. تقول لى:

- **أحيانا أخاف من جرأتك يامشيرة**
- **بالعكس. لو كنت مكانك لاستثمرتها مع الزمن لصالحنا وأطفالنا ونحن نتشارك الحياة**
- **كيف؟**
- **أنا أفعل وأقول ما لا تجرؤ عليه ، والعكس صحيح**
- **تخلطين دور الرجل بدور المرأة بسهولة**
- **لارجل ولا امرأة ياحبيبى. نحن كيانان انسانيان قررنا أن نعيش معا ، فلا معنى حينئذ للتجنيس الذى يشل القدرة على الإنجاز والسعادة**

ضحكت من قولى لكنك كنت سعيدا به، فأنت على قدر هائل من ثقتك بنفسك وبى. وبينما أنت تضحك فاجأتك بقولى:

- **وماذا ستفعل اذن لو حكيت لك عن توابع زلزال عريس الخليج؟**
- **احكى يا مشمش. والله أنا أخشى أن أفقد عقلى على يديك وتكون نهايتى السعيدة بمستشفى المجانين**
- **لكنى أعطيتك لمحة وافية من القصة نفسها عبر الهاتف**
- **أريد التفاصيل وتوابعها. كان الله فى عون والديك المسكينين**

وحكيت لك ماحدث بتفاصيله الدقيقة يابيبى فماذا فعلت؟..قبلت يدى ولم تتكلم، فأنت سعيد بمشمش كما هى ، ولست تفكر أبدا فى أن تصنع منها مخلوقا على يديك وهواك وطبقا لرغباتك ، بل انك تحترم كينونتها ووجودها . أنت رجلى الوحيد الأوحد يا كريم.. بارك الله فى عمرك ياغالى

- **وكيف كان رد فعل أبيك؟**
- **أشعل سيجارة وقال: لاحول ولا قوة الا بالله**
- **ثم ماذا؟**
- **لم ينطق حرفا . ظل جالسا يبحلق فى الفضاء وكأنه منفرد ولا أحد معه، ثم خاصمنى لفترة قصيرة كالمعتاد ثم نسى .**
- **وأنت..ماذا فعلت؟**
- **قلبت فنجان قهوة سفيان وسألته ان كان يرغب فى معرفة بخته!**
- **عندى سؤال لطفلتى المشاغبة..كثيرا مايجول بخاطرى**
- **تفضل. اسأل**
- **ما الضمان فى هذه الحياة أن نظل على حبنا ولا نفترق أبدا؟**
- **حرام عليك يا رجل..سؤالك صعب**
- **توقعت أن تفرض رومانسيتك نفسها على اجابتك فتقولين بلا تردد – ما أردت ان أسمعه منك - أننا لن نفترق الى الأبد**

- قد أكون طفلة فى عينيك، لكنى طفلة بى شىء من الحكمة المبكرة
- وماذا تقول حكمتك يا مشمش ؟
- تقول إن السؤال نفسه – واسمح لى – ليس صحيحا
- لماذا؟
- لأن العقل يقول أنه ينبغى علينا أن نعيش لحظتنا فقط ولا ننظر خلفنا ولا ننشغل بما سيحدث لنا
- طفلة فيلسوفة!
- المسألة بسيطة جدا ، فالماضى ولىّ ولن يعود ، والمستقبل لا يعلمه الا الله

****

لست أتصور أبدا أن كريم سوف يجبرنى على طاعته فى الفراش باعتبارى مملوكة له ، وأن أقدم حقه فى المتعة على حقى ، ضاربا عرض الحائط بمفهوم الشراكة فى المتعة بعيدا عن هيمنة الزوج وتسلطه متوخيا فى ذلك كافة أشكال العنف للوصول الى لذته. لو شاء ذلك فسوف يساعده فكر دينى سائد فى الاعتقاد بأن طاعة الزوج فى الفراش لجميع أوامره ونواهيه هى جواز العبور الى الجنة وعلامة على ممارسة الدين على أكمل وجه. أنا على ثقة من أن طبيعة تفكيره ترفض هذا المنطق تماما.

سألت أمى يوما كيف تعرفت على أسرار الجنس قبل زواجها وبعده. لم تخجل على الاطلاق من تفتيح بصيرتى على كل ما كنت أجهله من شئون الجنس اعتبارا من بداية الحيض حتى فض البكارة. علمتنى بحنكة شديدة كيف ألعب بنجاح على طرفى معادلة المتعة والتفاهم بين الرجل وزوجته ، كما لو كانت أستاذة فى هذا الأمر. نعم كانت أستاذة ولكن بالفطرة وبعوامل أخرى مكتسبة من الخبرة والتجربة مع أبى اللذيذ. لم تكن تشعر بالحياء اطلاقا وهى تحدثنى فى هذه الأمور وتعلمنى كيف أكون امرأة ناجحة فى حياتها الجنسية والاجتماعية معا. تقول لى دائما:

- اعتمدى على فطرتك وغريزتك
- كيف؟
- لاترائى زوجك ولاتنافقيه واتركى نفسك على سجيتها تكسبين محبته
- وماذا أيضا؟
- تعاونى معه بلا حرج على تبادل استكشاف وسائل متعتكما وسعادتكما

مثلما كنت صديقة لأمى كنت صديقة لأبى ولكن بصورة أخرى، فهو يجد حرجا شديدا فى الحوار معى حول هذه الأمور، لكنه يتفهم أحقيتى فى طلب المعرفة ، فيكتفى بإهدائى الكتب التى تشرح هذه الأمور وتكشف عنها النقاب. يقول لى فى حياء جميل:

- اقرئى هذا الكتاب يامشيرة..سيعجبك

أتعمد معاكسته واحراجه فأقول له:

- وماذا أفعل حين أتعثر فى فهم موضوع من موضوعاته

يتهرب من ألاعيبى فى لطف مشيحا بيده:

- اسألى أمك

أعتقد أن سر نجاح صابرين وتوافقها مع أبى يرجع الى قدرتها الفائقة على التسامح، فمن النادر أن تتوافق الحياة بكل تفاصيلها بين زوجين مالم يكن كلاهما على درجة عالية من الأدب وروح المرح والقدرة على بذل التضحيات ، وكلها صفات متوافرة فى أمى بصفة خاصة.

انها لاتبحث عن كيفية إدخال السرور على قلبها بقدر ما تبحث عن كيفية ادخال السرور على قلب أبى. لقد عرفت كيف تصادقه ، والزواج السعيد فى رأيى هو الذى يمتزج فيه الحب بالصداقة ، والحساسية بالاحترام..اللهم اوعدنى يارب!!!

لم يغفر لى أكذوبة الشقة المستقلة التى وقع فى فخها كالعريس الا بعد وساطة مخلصة من صابرين..

طبعا كان – وما زال – من الصعب أن أطرح معه للمناقشة معظم الموضوعات التى اطلعت عليها من الانترنت، أما الكتب التى كان يمدنى بها فكانت معلوماتها متواضعة الى جانب المعلومات التى يمدنى بها شريط جوجل.

من الصعب أن أفاتحه أو حتى أفاتح أمى فى مسألة حق الرجل فى تأديب زوجته بالضرب. المنطق الانسانى الطبيعى يقول بضرورة إقامة العلاقة الزوجية على قيم المودة والمحبة والمعاشرة الحسنة ، لا على الابتزاز والنفاق واهدار كرامة المرأة بتبرير دينى لحق الرجل فى الضرب لضمان الطاعة وسد المنافذ أمام النشوز ، فلا اعتراف بجسد المرأة الا اذا كان منضبطا راضخا لارادة الزوج. هى علاقة غير متوازنة بين طرف ضعيف مسلوب الارادة يعامل بعقلية تأديبية لأنه يمثل الفتنة ومصدر الريبة لضعف العقل والعجز عن السيطرة على الغرائز – عند ناقصات العقل والدين – فى مقابل حرية كبرى تمنح للرجل، فله أن يستبدل الأجساد ويعدد النساء ويطلقهن بحيث لا يزيد عدد نسائه طبقا للشرع عن أربع.

مايثيرنى ويغضبنى أن رد فعل مجتمعنا المصرى على انتشار القيم التى تبثها وسائل الاتصال الحديثة ، فضلا عن معطيات الثقافة الغربية ونتاج العولمة ، قد تجلى بوضوح فى النكوص والارتداد الى الوراء لأبعد من مائة عام بالتشبث بالموروث الذى أصابه العفن ، وإفراز ردود فعل مضادة بشدة للعقل والمنطق إذ يتم تقديس مقولات غير معقولة لأفراد من البشر عرضة للخطأ والصواب. اختلاط الحابل بالنابل فى الفضائيات الدينية علامة واضحة على اكتساح هذا التوجـــــــه المتخلف. صار نفر من الدعاة والمدعين منبعا للحقيقة ومصدرا للصدق بالنسبة لشرائح اجتماعية كثيرة ، كما انتشرت اعلانات رسمية عمن يفكون السحر ويبطلون الأعمال ويمنعون الحسد :

" الشيخ الكتاتنى المغربى والحاجة خديجة المغربية والرقية الشرعية لاستخراج الجن وفك الأعمال وإبطال السحر"!!.. هل يصدق أحد أن هذا اعلان يذاع على الناس سنة2017؟ الله يخرب بيوتكم.. هل هذا الشعب ناقص جهل وخرافات حتى نبث فى وعيه مثل هذه الخزعبلات؟.. صدّقهم الناس وراحوا يتصلون بهم ويطلبون عونهم!!..

احدى جاراتنا تخفى عنى أحفادها الواقفين أمام باب الشقة وتسارع بدفعهم الى الداخل عندما أمر أمام باب شقتهم فى صعود أو هبوط حتى لا أحسد بناتها اللاتى أنجبن هؤلاء الأحفاد بمجرد النظر اليهم بعينىّ العانستين لا الناعستين . حينما تلتقى أعيننا تقذفنى بابتسامة صفراء مخادعة لتخفى خبثها.

أنا أفهم أن الحسد هو شعور عاطفي بتمني زوال قوة أو إنجاز أو ملك أو ميزة من شخص آخر والحصول عليها ، أو يكتفي الحاسد بالرغبة في زوالها من الآخرين. وهو بخلاف الغبطة فإنها تمني مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط.. وأنا والله لم أشعر بذلك مرة واحدة فى حياتى. انا أحب الخير لكل الناس ولا أتمنى أبدا ما فضل الله به بعضهم علىّ.

جارة أخرى لا تمل أفعال السحر الساذجة حتى تزوج بناتها الأربعة فهى تارة ترش ماء ممزوجا بأشياء مجهولة أمام عتبات بعض الشقق وتارة ترمى عرائس صغيرة من القطن بها دبابيس وحروف أوراق وأحجبة محروقة. عندما سألتها عنى سيدة جاءت تبحث عن عروسة لابنها قالت لها أننى أدخن السجائر وأنها رأتنى بعينيها متلبسة بهذا الجرم الخطير.

تعطل مبدأ المساواة فى أجهزة الاعلام وصارت القضية الرئيسية تحجيب النساء ومصادرة أجسادهن. أزاد الغزو الوهابى الطينة بلة بالترويج لخرافات عديدة منسوبة الى الاسلام، حتى أن آخر حكام مصر قد صرخ مطالبا بتجديد الخطاب الدينى بما يتلاءم مع روح العصر، لكن الاستجابة كانت فى منتهى الضعف والبطء ، حتى أن شابا نابها تعرض للسجن عندما استجاب لهذه الصرخة وراح يوضح فى برنامجه التلفزيونى الشهير – مستعينا ببراهين وأدلة عقلية منطقية- كيف أنه لايجوز تقديس مقولات لأفراد باعتبارها جزءا من الدين الذى يقتصر التقديس فيه على كتاب الله.

أنا أعلم أن من يقرأ مذكراتى الآن قد أصابه الملل الشديد من هذه المحاضرة الطويلة العريضة عن أحوال المرأة فى بلادى ، وربما اعتقد البعض أننى فتاة سيكوباتية تحركنى عوامل الحقد والغيرة والقلق. لكن لا مفر من اكمال هذا الفصل حتى أريح ضميرى وليكن ما يكون.

هناك تساؤلات تحيرنى:

- لماذا لانجد الا قليلا جدا من المنشغلات بالشأن الدينى عن علم ودراسة حتى لايظل هذا الأمر حكرا على الرجال؟
- لماذا لاتتصدى الكاتبات وأساتذة الجامعات لطغيان الدعاة السلفيين الذين يصرون على الرجوع بالدين والدولة والشعب مئات السنين الى الوراء؟

أغلب ظنى أن لهذا الغياب صلة وثيقة بقضية المواجهات العنيفة مع التيارات الاسلامية.فمن تتجرأ على اثارة قضايا تتصل بجسد المرأة ، تقدم نفسها كبش فداء يحق لكل من هب ودب أن يطعن فى شرفها ويعتدى على خصوصياتها..لايكتفى بتوجيه اللوم لها بل يسبها ويشتمها لأنها تعرضت لموضوعات واقعية متعلقة بجسد المرأة- خاصة ان كانت عانسا أو مطلقة – وجسدها معروض للفرجة أو الاستهلاك ، أوموضوعات أخرى متعلقة بالسحاق وممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج،أوالممارسات الجنسية الجديدة لدى شرائح مختلفة من الشباب بعد ظهور مواقع الانترنت الاباحية وانتشارها.

الغريب أن هناك حزبا رسميا ناطقا بلسان الماضى والتخلف قد سمحت به الدولة بالمخالفة الصريحة للدستور ، فأصبح من حقهم الرسمى أن يروجوا أباطيلهم بين عامة الناس ، ولا أستطيع أن أقول الا:"لاحول ولا قوة الا بالله"..

هناك ظاهرة خطيرة لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التعرض لها هى انحسار المبدعات فى مجتمعنا بفعل القمع الذى يفرز نماذج غير سوية من النساء يتعذر عليهن أن يكن مبدعات فى مختلف مجالات الفنون والآداب. وهى خسارة فادحة لنصف المجتمع وبالتالى للمجتمع كله. وأنا لا أغتر بكثرة هؤلاء الأديبات اللاتى تنشرن القصص والروايات هذه الأيام وتعقدن حولها الندوات ، وكلهن محجبات الرأس والمخ كما تشير أعمالهن المحدودة القيمة الى ذلك. بل ان بعضهن منقبات فأى رسالة تلك التى يردن تقديمها الى المجتمع وهن بهذه الدرجة من الانغلاق والتقوقع؟.. إنى أتحدى أن تكون لدى احداهن القدرة على الاستمتاع بسماع موسيقا لباخ أو فاجنر أو موتسارت لو كن قد سمعن عن هذه الأسماء من الأصل ، أو كن لا يعتبرن الموسيقا حرام.

هاهو الحماس يأخذ بى فأصيح بأعلى صوت فى مذكراتى: "أيتها المرأة عليك بامتلاك جسدك والتخلص من حالة الارتهان الى الأب والزوج والأخ والابن والعشيرة".

ولكن هل من مستمعة؟!..

...

رائحة الخل والثوم تفوح فى البيت لزوم الفتة باللحمة. وجدت نفسى أدندن وجسمى يهتز فى حرية تامة مع الايقاع الشعبى لأغنية صلاح جاهين:

يابو زعيزع قوم صلى / ده انت فى ريح المتولى
خلى مراتك زعزوعة /تلحق تطبخ وتقلّى
لسه الشهر اتنين منه / والجيب عمران على سنّه
ويا ما احلى يوم الجمعه / والغدوة رز بدمعة
واللحمة كمونية / والفتة بالتقلية

شاركتنى حبيبتى وردة فى الرقص والغناء. كانت ضحكاتنا كلها حيوية وانتعاش وحب للحياة..

وأكلت كثيرا جدا...

****

- 7 –

راح يجرى كعادته بين أرجاء الدار يخطف كتابا من هنا ويلقيه هناك ، وأنا أطارده وقد غلبنى الضحك من شقاوة " وليد" الذى لم يتجاوز من العمر سنوات محدودة. يتعمد إغاظتى بشد الكتب من الأرفف والقائها على الأرض ناظرا الىّ فى شماتة المنتصر، ويشع من عينيه السوداوين الجميلتين ضياء سحرى ذى جاذبية مبهرة ، فأتوله فى حبه. أظل أطارده حتى أمسك به فأحتضنه وأقبله بمحبة أنا نفسى أندهش لصدقها وحرارتها، كما لو كان الولد ابنا حقيقيا لى . جاءنى وليد منحة الهية للتدريب العملى الواقعى على ممارسة الأمومة. أفرغت فيه كل ما لدى من طاقة على الحب والحنان والعطاء. كدت أبكى مرة وأنا أقبله حين تذكرت أمه التى وصفها أحمد مراد بأنها كانت شديدة الجمال ، والتى ماتت فجأة وبدون مرض أو حادث ، مسببة لأحمد صدمة كارثية مازال يعانى من آثارها.

كثيرا ماكان والده يتركه من حين لآخر فى رعايتى حين انشغاله بأمور خارج الدار ، حتى صارت هناك ألفة حميمية بينى وبين الطفل لم يعد أحدنا فى غنى عنها. أشعر بالرضا والاشباع العاطفى والاستقرار النفسى كلما أخذت وليد بين أحضانى وغمرته بالقبلات والأحضان. أربت على خديه وصدره وظهره فى رقة وحنو وكأنه خرج من أحشائى بل كما لو كان قطعة من هذه الأحشاء.

اضطرت الظروف والده الى السفر خارج الاسكندرية ليومين. كانت مربية الطفل مريضة وراقدة بإحدى المستشفيات. عرفت ذلك من حديث عابر مع أحمد الذى كان فى حيرة من أمر ولده و لا يعرف كيف يدبر أمره خلال هذين اليومين.

بات وليد فى حضنى وعلى فراشى وهو طائر من السعادة. ظل صاحيا معظم الليل أحكى له الحكاية تلو الأخرى حتى أغمض عينيه فى ملائكية ساحرة ، فأغمضت عينى أنا الأخرى ونمت هائمة فى الابتسامة النورانية الشفافة التى اكتسى بها وجهه.

خلال هذين اليومين عقدت وثيقة حب الهى لامثيل لها على الأرض ، طرفاها وليد وأنا. أصبح هو رجلى وأصبحت أنا امرأته. عاد أحمد ليكتشف بفراسته القوية ذلك الأمر. كانت نواياه حسنة تجاهى فى كل الأمور، خاصة فى علاقتى التى تطورت مع ابنه. كان محقا بالفعل ، فلم يكن هناك أدنى غرض شخصى لدى يحيط بهذه العلاقة الرائعة. أنا نفسى وقعت أسيرة لحب وليد فتعلقت به مثلما تعلق بى وأكثر. فى هذين اليومين أيضا توطدت العلاقة أيضا بين وليد و"تيته صابرين" أمى ، إذ عشقته هى الأخرى لذكائه وخفة ظله وشقاوته. كان بالنسبة لها الحفيد الأول وكأنما تتوسل الى الله وتتعجل الزمن لأتحفها بحفيد من دمى تفرح به مثلما فرحت بهذا الطفل. غير أنها لم تدع الفرصة تمر من بين يديها حين سألتنى من خلال ابتسامة موحية:

- ايه الحكاية يامشيرة؟!
- حكاية ايه؟
- واضح أن أحمد يحاول الاقتراب منك بوليد
- اطلاقا. هذا لايدور ببباله أبدا . أنا أعرفه جيدا
- أواثقة أنت من ذلك؟
- كل الثقة ، كما أنه أعلن أمامى أكثر من مرة أنه عازف تماما عن الزواج
- معظم الرجال يقولون ذلك ثم يغرقون لآذانهم فى بحور الحب والزواج
- عموما أنا لا أفكر فيه كزوج ، وأعتقد أنه هو الآخر لا يفكر فى كزوجة
- وما السبب؟
- لا أعرف
- ربنا يعمل ما فيه الخير يابنتى.. ويعلم الله وحده أين النصيب

لم يكن هناك ما يشير الى احتمال أن يطلبنى أحمد كزوجة على ضوء دراستى لشخصه وإلمامى بأحواله وطبائعه ، ومع ذلك لم أمانع حين دعانى لتناول الغداء معه بأحد المطاعم الشهيرة. بل وأبديت موافقتى بلا تردد.

على المائدة كان ودودا معى للغاية.كنت متلهفة لسماع ما سيقوله هذا الكائن الغامض، لعلمى بصعوبة استنطاقه إذ يبطن دائما أكثر مما يظهر. هكذا عرفته بحكم تعاملى الحذر معه وفهمى لأحواله وطبائعه. كنت نائبة له فى العمل وسكرتيرة خصوصية ومديرة لأعماله العديدة فى مجالات مختلفة. أسند الىّ كل هذه الأعباء معللا ذلك بموهبتى فى فن الادارة. تذكرت تلميحات أمى بشأنه دون أن آمل فى حدوث المعجزة التى تنتظرها صابرين. رغم أنه يعشق الصمت فقد نطق:

- كان لابد أن نلتقى خارج الدار بعيدا عن عيون الموظفين.
- أتفهم ذلك بالطبع
- وأنا واثق فى ذكائك وحسن نواياك
- أيعنى هذا أن هناك أمرا معينا تريد أن تطلعنى عليه؟
- فعلا ، لكنى فى غاية الحرج منك
- لا مبرر للحرج بعد طول فترة التعامل بيننا
- أنت انسانة رائعة وأنا بحاجة الى عونك دون استطاعتى أن أقدم لك المقابل
- لو كان بمقدورى فلن أتردد
- وليد
- ماله؟
- وجوده معى يقيد حريتى ويحد من نشاطى
- هل يمكن لرجل أن يقول مثل هذا الكلام عن ابنه؟!
- وليد ليس ابنى
- ابن من اذن؟
- ماتت زوجتى قبل أن تدلنى عليه. كانت قد وعدتنى بأن تذكر لى من هو فى الوقت المناسب

صدمتى كانت فوق التوقع. حكى لى قصة حبه الاسطورية مع أم وليد التى كان يعتقد أنها قصة لن تفقد حرارتها وحيويتها مدى الحياة. قبل ليلة الزفاف بأيام قليلة صرحت له بأنها حامل فى الأشهر الأولى رغم أنها مازالت عذراء. كانت تمارس مع شاب من الجيران علاقة من الخارج هى بمثابة نصف جنس يراعيان فيها الحفاظ على العذرية. وقع المحظور يوما دون حسبانهما إذ تمكن حيوان منوى فاضح فاجر من اختراق غشاء البكارة والنفاذ الى الرحم.

" لست أدرى كيف قبلت بهذا الوضع وانتظرت حتى وضعت حملها. منعنى حبى لها من الاهتمام بمعرفة الفاعل الا بعد الولادة حسبما وعدتنى".

- ولماذا لم تتزوج هذا الشاب؟
- هاجر الى الخارج بعد اكتشاف الأمر مباشرة
- صدفتان أقوى من الخيال لا تتكرران الا فى الأفلام العربية
- أى صدفتان؟
- هروب الجانى الفورى وموت المجنى عليها قبل أن تبوح بإسمه
- وماذا كان سيفيد البوح وقد غادرت الدنيا بأكملها؟

أبقى أحمد مراد على وليد من باب الانسانية رحمة وشفقة بمصيره . كانت له شقيقة غير متزوجة تقوم برعاية الطفل وقد تجاوزت الأربعين بعدة أسابيع حتى يئست من الزواج والانجاب، حين تقدم اليها شاب يكبرها بخمسة أعوام ويعمل فى تجارة مربحة بإحدى دول الخليج.

" مثلما كان لوليد قبول عند شقيقتى فوزية ، كان له قبول مماثل عند زوجها شاهر. بقدر فرحتى لانفلاتها من فخ العنوسة كانت تعاستى بشأن مصير الطفل المجهول. وافق شاهر على اصطحابه معهما الى الخليج لحين التوصل الى وسيلة كريمة تضمن للطفل الرعاية الكافية

والتربية الصحيحة، فالطفل لاذنب له فى وجوده التعس المنعكس على وجهه بابتسامة ملائكية بريئة ساحرة".

"سعدت كثيرا لهذا الحل وكنت واثقا أن وليد سيصير ابن فوزية الحقيقى الذى سيعوضها عن ضياع فرصتها فى الانجاب بعد تجاوزها الأربعين".

"حملت فوزية بعد ما يقرب من عامين كان وليد خلالهما بمثابة ابنها الذى ولدته والذى أنجبه منها شاهر. أعطته كل ما استطاعت من حب وأغدقت عليه من حنانها كل ماجاد به وجدانها المعذب."

قلت وقد أخذنى التأثر الى بعيد:

- **لااله الا أنت سبحانك يارب**
- **لاتتعجبى من قدرة الله يامشيرة**
- **ماذا أنجبت فوزية؟ صبى أم صبية؟**
- **أنجبت أربعة توائم**
- **وهذه مصادفة ثالثة لكنها أبعد من حدود الخيال**
- **عندئذ أبلغنى شاكر برغبته فى إعادة وليد الىّ**

كان أحمد مراد قد ارتبط بمشاركة قوية فى التجارة مع شاهر تضطره للسفر من حين لآخر. كان الملجأ الوحيد لوليد عند سفر أبيه هو جدته المريضة ، ضعيفة الحركة والتى تقوم على خدمتها فتاة طيبة من الأرياف ، كانت بمثابة مربية لوليد. لكن وليد كان دائم البكاء والصراخ عند بقائه بهذا البيت، فلم يكن يميل الى الجدة والمربية بعد أن ذاق حلاوة الحب معى ومع فوزية.

وأنا أبتسم قلت لأحمد:

- **لقد سمعت منك قصة لاتصلح الا للأفلام الهندية أو المصرية الأبيض وأسود**
- **معك حق ، فكمّ المصادفات بها لاتجدينه الا فى مثل هذه الأفلام**

بعد فترة صمت وتأمل تنهدت تلقائيا وأنا أقول له:

- **المهم أننى حتى الآن لم أفهم الغرض من مصارحتك لى بكل تلك الأحداث**

والحق أننى فهمت مرماه ، لكنى ادعيت بغير ذلك ترقبا لما سيقول . هو يريد منى – دون أن يصرح – أن أقوم بدور فوزية السابق فى رعاية وليد، طالما لم أتزوج حتى الآن ، ولحين يقضى الله أمرا كان مفعولا. فكرت بسرعة وهو يسهب فى تفاصيل قصته غير القابلة للتصديق. لو لم أكن قد خبرت صدقه وصراحته منذ عملت معه لما صدقت شيئا مما قال.. ولولا أننى لمست مدى اعتياده على العطاء والبذل والسخاء وحسن النية ، لصفعته على قفاه وانصرفت احتجاجا على انتهازيته وأنانيته واستغلاله لظرفى الحرج ليحل مشكلته دونما اعتبار لعقلى ومشاعرى ، وكأنما قرر أن يكون مكتوبا علىّ – فى نظره - أن أعيش بقية عمرى عانسا حتى أربى له ابنه الذى ليس ابنه !..

****

-8-

سيطرت علىّ رغبة جارفة فى أن أعرف نفسى أو أن أتعرف عليها جيدا.دخنت سيجارة وجلست شبه مخدرة الى البيانو أعزف ماتراءى لى من تقاسيم عفوية ربما ترشدنى لمعرفة من أكون. أعبر بها عن ذاتى. أهبها خلاصة صادقة لأعماق نفسى الحائرة دون كلام أو كتابة أو أى فعل آخر . بعد غيبوبة عن الزمن لم أدرك مداها توحدت مع الآلة التى أعزف عليها بل صرت أنا هى لا العازفة عليها. اندمجت بكل شعورى وعقلى وإرادتى مع لحن تلقائى أعزفه لأول وآخر مرة. شاهدت سنوات عمرى بكل تفاصيلها منذ البداية مرورا بالذروة التى أعيشها الآن. لكن أناملى عجزت تماما عن وضع نهاية مناسبة لهذه المعزوفة الانفعالية الساخنة فتوقفت عن العزف.

جفانى النوم طيلة الليل. لم أسترح الا بعد أن قررت أن أروى لأبى وأمى كل ما سمعته من أحمد. لم أكن قد توصلت الى قرار بشأن إقامة وليد ببيتنا، أولا لأنه لم يعرض على هذا المطلب مباشرة سواء من باب الكبر أو من باب الحرج، وثانيا لأننى لم أصل بعد الى قرار نهائى بهذا الشأن. لست أدرى لماذا لانسهل على أنفسنا الحياة بالصدق والمصارحة بدلا من الالتواء والالتفاف. لماذا لايعبر كل انسان عما يريد بشكل مباشر يتجه الى هدفه مباشرة فيريح ويستريح.ربما تكون صراحتى جارحة أو مخجلة وأحيانا تتسبب في كارثة.

لم يحدث أن انقلبت صراحتى الى وقاحة تغضب الآخرين . بين الحلم والحقيقة أتمنى أشياء كثيرة ، ثم أفيق لأكتشف هشاشة أحلامى. أسير بخطى بطيئة حينا وسريعة حينا آخر.وكأنى أسابق الزمان والمكان وكل العالم يهرب منى. أبحث عن السعاده و الدفء و الأمان ولا أجدهم. لا أدري الى أين أسير ولا متى سوف أصل ، و في غمرة الفرح يعاودنى الحنين للحبيب المجهول، ومع ذلك أترقب الغد بأمل وحب و تخوف، ثم أعود وأتمنى كل شيئ جميل وكلى ثقه في المستقبل وكلى أمل في الغد.

رأيت أن أستعين بوالدىّ فهما فى النهاية أصحاب القرار الحقيقيين بغض النظر عن موافقتى أو رفضى.

وجهى فى الحائط. جماد أصم لايفارقنى كل ليلة. لا ينمو ولا حياة له بخلاف الإنسان والحيوان والنبات. لم أكرهه أبدا لكنى لم أحبه فهو يهددنى أحيانا بالوحدة وأحيانا يحببنى فيها ويجعلنى بحاجة ماسة اليها. صورة وليد تداعبنى علي سطحه الناعم الغبى. أحاول بكل ما أوتيت من قدرة على التصور والتخيل أن أضع نفسى مكان هذا الطفل وأعيش مشاعره وأحاسيسه ، فأكتشف أننى واهمة وأن ذلك الأمر مرهق مؤلم بل انه مستحيل. أغلب ظنى أن يتيم الوالدين ينام وهو غارق فى الأسى بعيدا بفكره وخياله يسلي نفسه بصوتهما ويرسم لوحة الحرمان من ألوانه. يشتاق الى أحضان الوالدين يضمانه ،لكن لا يضمه سوى ألمه وأحزانه. ضجيج يتعالى في داخله أمه و أبيه وحنانهما المفقود. يشتاق ليعرف من هو . إبن من ؟. ماتت مشاعره ومات حنينه مذ فقد طعم الأبوة. ذبلت طفولته في صحراء المعاناة . ونسجت من ألمه في ظلام الليل خيوطا لا يراها سوى يتمه ، فأبوه حى يرزق!.

لم أسأل أحمد عن اسم زوجته الراحلة. لاأستطيع القول أننى أشفقت على هذه السيدة أو تعاطفت معها بعد أن استمعت الى قصتها ، رغم أننى أول من يحترم الضعف البشرى و يلتمس الأعذار لأمة خلقه فيما يفعلون ويقولون عن عمد أو عن غير قصد. ما الذى دفعها الى ممارسة هذا الجنس المبتسر الكريه الذى أدى الى هذه الكارثة ، حين كانت مرتبطة فى الوقت نفسه بأحمد؟.. أعجز بكل حيلتى عن الوصول الى تفسير أو تبرير لذلك. ثم ما الذى دفع أحمد الى قبول هذا الوضع الشاذ الذى لم يكن يخطر على باله يوما مواجهته؟.. ولماذا أيضا لم أفكر يوما مثلما تفكر معظم الفتيات اللاتى مازلن ينتظرن العريس، أن أبحث عن وسيلة جسمانية للتنفيس عن طاقتى المكبوتة وحدى أو مع شاب من المتهافتين من حولى؟. أهى مسألة دين أم أسلوب

تربية أم استعداد نفسى ، أم أنه شىء غير عادى فى طبيعة شخصيتى يجعلنى أضع حدا فاصلا بين غريزة الجنس وسائر الغرائز الأخرى كالأكل والنوم وغيرهما.

تتناثر اليوم على الحائط صور عديدة. لا أفكر كالعادة فى العدم أو فى المصير المجهول. أفكر فقط فيما يمكن أن يفعله الانسان لنفسه بنفسه أو بغيره ثم يحسم الحظ المسألة ، حتى أن يحدث احتمال لاذكر له ولا قيمة فى النسب الحسابية الطبية أو حتى لنظرية الاحتمالات الرياضية ، فتحمل أم وليد وتبقى عذراء. هه!!..هاهو الغشاء بطل المأساة الأنثوية باق يتحدى الجميع ويبطل ادعاءاتهم لكنه لايستطيع أن يمنع وقوع فضيحة محققة.

عندما ازدحمت الصور على الحائط غادرت الفراش وخلعت ثوبى. وقفت أتفرج بإمعان واهتمام على جسدى وأنا فى قميص النوم أمام المرآة. أتحسسه فى مواضع مختلفة باعتزاز فائق. شكرا لك يا الهى أن منحتنى هذا الجسد المتناسق الجميل الذى تخترقه عيون الرجال بكل آيات الاعجاب. لأول مرة آتى بمثل هذا الفعل الذى لم أعرفه حتى فى مراهقتى. مارست طيرانا حالما الى فضاء الرومانسية الغائبة بينما أتغنى بقصيدة نزار الشهيرة وأرقص عليها ويداعب خيالى طيف حبيبى المجهول الذى مازلت أبحث عنه وأنتظره:

يسمعنى حين يراقصنى / كلمات ليست كالكلمات
يأخذنى من تحت ذراعى / يزرعني في إحدى الغيمات
يحملنى معه.. يحملنى / لمساء وردى الشرفات
والمطـــــر الأســـــود فـــــي عينـــــي / يتســـــاقط زخـــــاتٍ.. زخـــــات
وأنا كالطفلة فى يده / كالريشة تحملها النسمات
يحمل لى سبعة أقمار / بيديه..وحزمة أغنيات
يهدينى شمسا..يهدينى /صيفا..وقطيع سنونوات
يخبرنى أنى تحفته / وأساوى آلاف النجمات
وبأنى كنز..وبأنى / أجمل ماشاهد من لوحات
يبنى لى قصرا من وهم /لا أسكن فيه سوى لحظات
وأعود..أعود لطاولتى / لاشىء معى .. الا كلمات
...

كنت أتساءل هل يمثل الجسد الأنثوى اشكالية تستعصى على الحل عند المرأة بصفة خاصة بحيث يبقى لغزا تعجز عن حله بمفردها ، أم أن الحل سوف يبقى دائما بيد الرجل ولامفر؟.. أعتقد أن كل فتاة فى مثل حالتى – حالة الانتظار – لابد أنها تفكر فى جسدها معظم يومها أيا كان أسلوب التفكير الذى تعبث فيه الثقافة مثلما يعبث فيه الدين فتحار فيه النفس ولا تجد للراحة مذهبا تركن اليه.

ان جسدى ليس شيئا أملكه بقدر ما هو علامة على كينونتى ، من خلاله أتعرف على حقيقة وجودى فى هذا العالم العجيب الحافل بالظلم والقسوة.

قرأت وعرفت كثيرا عنه، لكن سرا خفيا به يبقى مستعصيا على فهمى وإدراكى مهما ارتكنت الى الدين ، ومهما نجحت محاولاتى نسبيا فى ترويضه وتهذيبه والسمو به بعيدا عن مدارك الحضيض. لقد تعلمت من قراءاتى أن هناك لذة ظاهرية فى التقاء جسد الذكر بجسد الأنثى، إذ يحن كل منهما الى الآخر فيما يسمى بالبعد الظاهرى لثنائية الجسد واللذة ، كما أن هناك بعد باطنى خطير يحن فيه الجسدان معا الى خالقهما ويطلق عليه حنين الفرع الى الأصل، حتى أن بعض المحللين وصفوا الجسد بأنه الجسر الذى يصل الى الله. هكذا يحن الفرع الى الأصل مثلما يحن الأصل الى الفرع فتتحقق اللذة ليظل الحب الالهى هو الأصل ، بينما يبقى الحب الانسانى هو الفرع، والاثنان متكاملان معا تكامل الليل مع النهار.

يقولون ان الجسد هو برزخ الخلود.لغة الروح.عناق الأسرار.تجليات الصعود الى الذات الإلهية فى أنبل وسيلة لخلاص الانسان. يقول آخرون إن الجسد قيد للعقل ومعقل له ، وإن المعضلة الانسانية الكبرى تكمن فى الصراع بين العقل الواعى وانطلاق الروح.

الرجال يؤكدون على أننى كأنثى ما خلقت الا للضم والشم ، وأننى حين أكون فى العشرين فأنا متعة للناظرين ، وفى الثلاثين متعة للمعانق ، وفى الأربعين ذات رخاوة ولين ، وفى الخمسين ذات بنات وبنين، وفى الستين من الغابرين!.. لعنة الله عليهم هؤلاء الأنذال المحبوبين. هكذا يرانى اذن معظم من تقدم الى من العرسان. قد يكون الأمر كذلك بالفعل. لكنى لست أظن أن أحمد مراد ينظر الى من خلال هذا الثقب الضيق وبمثل هذه النظرة الذكورية المتعصبة فهو انسان جميل بلاشك. كنت أتمنى أن أعرف السبب الحقيقى الذى يدفعه الى العزوف عن فكرة الزواج. خشيت أن أسأله حتى لايظن بى الظنون فأرخص أمامه. استجمعت شجاعتى ذات يوم وقلت له:

- **أقسم لك أولا أنى لست أقصد شيئا معينا فيما سأقول**
- **لم هذا القسم وأنا لم أتهمك بشىء؟**
- **لأن هناك سؤالا ملحا أريد أن أطرحه عليك ، فكان لزاما على أن أعلن هذا التحفظ**
- **حتى لو لم تعلنيه فأنا أصدقك وأعرف أنك لا تحملين لى أكثر من مشاعر الأخوة ، تماما مثلما لا أحمل أنا الآخر مشاعر خاصة تجاهك**
- **الحمد لله..اتفقنا**
- **اذن فما هو السؤال؟**
- **لماذا لا تحل مشكلة وليد حلا نهائيا بأن تتزوج ؟**
- **أرجو أن تعفينى من الاجابة عن هذا السؤال**
- **هل هذا من توابع صدمتك فى زوجتك؟**
- **اعفينى من الاجابة أرجوك ومعذرة فلست أرغب فى احراجك أكثر من ذلك**

قال أبى :

- **بهذه الاجابة أغلق الباب فى وجهك تماما**

وقالت أمى:

- **لاترخصى من نفسك أمامه مرة أخرى ولو كان آخر الرجال فى الدنيا**

أضاف اليها أبى مجاملا لكن دون اقتناع ، فوجهه كان يفضح كذبه الاضطرارى:

- **وأنا مع أمك فى رأيها**

لم أشأ أن أفوت الفرصة دون مشاغبته فقلت له:

- **يا والدى ياجميل يا اسكندرانى..هذه النصيحة قادمة من وراء قلبك ، أما الحقيقة فهى أنك تريد أن تدفعنى دفعا الى الايقاع بهذا الرجل اللقطة فى حبائلى ، أو كما قلت لى من قبل:"اصطياده"!**
- **يلا امشى يابنت**
- **أموت وأعرف قصة حبك وزواجك من صابرين**
- **قومى غورى من قدامى**
- **أنا سمعت بعض تفاصيل هذه القصة منها. لماذا تتكتمها حضرتك؟**
- **ماذا قالت لك؟**
- **قالت إن رجليك حفيت لأجل الوصول اليها**
- **هجص!!!**
- **فأين الحقيقة عندك؟**
- **لا تصدقى من يقولون ان المبادرة دائما تأتى من الرجل ، فهى التى بدأت بمعاكستى**
- **لا أصدقك**

- اسأليها. يمكن أن تتعلمى منها مايفيدك لتعثرى على رجل مناسب. نريد أن نرى أحفادنا قبل أن نموت
- والنبى يابويا لا تقلبها غم

سحبت حزاما قماشيا لففته حول وسطى. كان الراديو مفتوحا على محطة الأغانى وكارم محمود يغنى"والنبى ياجميل حوش عنى هواك".. وغرقت فى دوامة شديدة من الرقص لم يشعر بها أحد سواى، وكانت دموعى حبيسة عينى.

****

أسهر الليل وحدى وقلبى الملتاع يخفق بحبك. يناجينى طيفك السابح على صفحة الماء الجياش بالزبد، بينما تغنى عروس البحر أغنية حب شجية فتردد الأمواج صداها، وتتصاعد أنغامها حتى تلامس النجوم المتلألئة فى الظلام كقلوب المحبين.

حبيبى لقد اخترتك دون بديل، فإما أنت وإما الوحدة والعزلة والابتعاد عن الخلق. لا أقول إما أنت وإما الموت ، فثقتى بعدالة الخالق الرحيم تحول بينى وبين ذلك. الله وحده يعرف كم ظامئة هى روحى الى لقياك ، فمتى تجىء لتفرج عن صدرى المكروب وتنعش روحى الميتة؟.. أنهكنى التفكير ياحبيبى حتى بت أخشى على عقلى من الضياع. أفكر لماذا خلقنى الله أنثى وعرضنى للوعة والتمزق والعذاب فى عالم كله رجال يفعلون بى مايشاءون. انى أفضل الموت بنار الدرك الأسفل من الجحيم على أن أعيش منافقة كذابة حتى يرضى عنى الرجال. ثم ان جسدى الذى هو لب المشكلة عند الرجال لم يعد يعنينى كثيرا ، فقد استطعت أن أروضه وأعوده على الاستغناء قدر المستطاع عن الرجال، فيما عداك ياحبيبى، فأنت أو لاشىء. أنت أو التجمد والسكون.أنت أو العدم.

****

- 9 –
فصل رابع من الكتاب
****

المسألة واضحة من أولها. العريس الجديد نذير شؤم فيما يبدو وطالع نحس. ما أن تم الاتفاق على تحديد موعد الزيارة حتى انقلب كيان الأسرة رأسا على عقب. قرر الذكر الاسكندراني ممارسة جبروته الذكورى على زوجته صابرين بأن منعها من زيارة شقيقتها المريضة والمقيمة فى طنطا.قدوم هذا العريس كان فأل شر. بالتالى فإن الجوازة مكتوب عليها الفشل .
– هكذا شئت أن أعتقد رغم أنى لا أومن كثيرا بالتطير- مع ذلك فقد شهدت فى حياتى نماذج من الناس يرتبط الشر والأذى بحضورهم حتى لو لم يفعلوا شيئا فى أحد هذين الاتجاهين. تعلمت أن هناك ظواهر انسانية عديدة ليس لها سبب أو تفسير فقنعت بالصمت وانتظرت ماذا ستسفر عنه الساعات القادمة.

.....

كان ابراهيم ابن خالتى عزة قد صارحنى مباشرة بأنه يريد الارتباط بى. ولما كنت أعلم أن خالتى هى الأعلى صوتا ، وأن ابراهيم لايملك سوى طاعتها ، فقد أمليت عليه شروطى منذ البداية قبل أن أقبل عرضه. كان على رأس هذه الشروط أن نعيش فى مكان مستقل بعيدا عن الأسرتين. رغم حب خالتى لى فإننى واثقة أننى لو أقمت فى بيتها مع ابراهيم سوف أتحول بالتدريج الى خادمة لها ، فهى انسانة غيورة مستبدة تمثل الصورة النموذجية للحماة المزعجة التى لاتعرف كيف تحب زوجة ابنها ، وانما تعاملها باعتبارها خاطفة ابنها وشريكتها فى حبه والاستحواذ عليه.

عندما قرأنا الفاتحة كنت ألاحظ شيئا من التحفظ وآخر من التحفز على وجه خالتى. كان واضحا أن هذه الزيجة لم تأت على مزاجها. على أية حال فقد تم الاتفاق على المسائل المادية المتعلقة بالموضوع وبدأ أبى فى الاستعداد لشراء الأثاث. لكنا فوجئنا بخالتى تنقض الاتفاق فجأة وتقول ان شقتها فى طنطا شديدة الاتساع وتتكون من طابقين رأت أن تخصص أحدهما للعروسين ، بل وقد استقر رأيها وقرارها على ذلك.

سارعت الى ابراهيم أستنجد به ليصحح الوضع فما وجدت منه غير التردد والتخاذل انصياعا لرغبة أمه وتعليماتها. حاولت استثارة نخوته ورجولته فما وجدت تجاوبا. عجزت عن التوصل الى الأسباب التى تجعل شابا ناضجا له عمل يرتزق منه وآراء يؤمن بها ، يتخلى عن ارادته تجاه من اختارها زوجة لمجرد أن أمه لاترغب فى ذلك أيا كانت مبرراتها.

فشلت الزيجة وأعقب ذلك قطيعة بين الأسرتين لم يخفف من غلوائها إلا تسامح أمى وإصرارها على زيارة شقيقتها التى امتنعت نهائيا عن زيارتنا. أما أبى فقد أصدر فرمانا قاطعا بألا يدخل بيت الخالة ثم ألحقه بفرمان آخر ألا ندخل بيتها نحن أيضا. هذا عيب الزواج من الأقارب ، فضلا عن العيوب الوراثية التى تغاضيت عن التفكير فيها بمزاجى إرضاء لأمى وخالتى ، لا حبا فى سى ابراهيم.

جمعتنا صابرين فى مجلس عائلى مصغر دون حضور أبى. أوضحت لنا وجهة نظرها بحتمية زيارتها لأختها ، فمن المحتمل أن يأتى السر الالهى – على حد تعبيرها – فى طنطا دون وجودها بجانبها فى ظل قطيعة لها غير مقبولة بل ومحرمة شرعا. أعلنت بوضوح تمردها على جميل ورفعت عليه راية العصيان مطالبة إيانا بتأييدها والوقوف بجانبها فى مواجهة هذا القرار الظالم .

كانت سعادتى طاغية بتمرد أمى وأنا أراها تفجر التابو الاجتماعى الكريه وتزلزل سيادة ذكر الأسرة الأكبر وسيطرته الطاغية بإصرارها على قرارها بالسفر حتى أنه هددها بالطلاق. لم تعبأ بتهديده وسافرت بعد أن أسفر اجتماعنا العائلى عن تأييد موقفها بالاجماع باستثناء تحفظ فارس الذى كان يخشى – رغم تأييده الذى فاجئنى لأمه - أن ينفذ أبوه تهديده ويطلق أمه

بالفعل. أما ماضى الذى لايهش ولاينش فقد توافق معنا عملا بالمثل الشعبى القائل:"معهم معهم عليهم عليهم".

فى ذروة هذه الأزمة وصل العريس الجديد. طبيب ناجح ، من أسرة طيبة مستواها الاجتماعى والمادى يشرف أى أسرة تبغى مصاهرتها. الولد خفيف الظل بشكل غير معقول. من الدقيقة الأولى لرؤيته دخل قلبى وكأنه خلق للمرح والبهجة والسعادة. اسمه حازم مع أن الحزم لا يبدو على وجهه البشوش بالمرة. يعشق الموسيقا والأدب. ميولنا تكاد تتطابق. أما عن مظهره فهو الأناقة بعينها ، وأما ملامحه فهى الجمال بعينه. يا ألله. أخيرا جاءنى الفرح والفرج منك يارب. اتفقنا – كما اعتدت مع كل العرسان – على اللقاء خارج البيت حتى يتعرف كل منا على الآخر أكثر. لم تسافر أمى إلا بعد أن اطمأنت على موافقتى على حازم وقراءة الفاتحة مع أسرته.

تركت أبى يضرب أخماسا فى أسداس دون أن يستطيع اتخاذ أى قرار يصون له عنتريته وكيانه السلطوى ذو الجذور المتشعبة فى الكيان الاجتماعى الشرقى المسكين.

خلال غياب أمى كان أبى يتحاشانا قدر الامكان. أنا بصفة خاصة كان يتجنب الكلام معى فى أى شىء. بدا كالمهزوم فى بيته الذى يديره ، ولم يستعض عن هذا الشعور الا بالصمت والكبر وادعاء اللامبالاة. لكنه كان يعجز تماما عن إخفاء عصبيته حين يطلب منا إعداد الطعام له. سمعته أكثر من مرة يكلم نفسه بصوت خفيض ، لكنى لم أفهم مضمون كلامه. شعرت نحوه بالعطف الشديد وتمنيت أن أرفع عن كاهله أحزانه الوهمية التى كبل نفسه بها.

بعد أيام قليلة عادت أمى وقد اطمأنت على خالتى. لم يستطع جميل أن يخفى ابتهاجه وسعادته بعودة صابرين وإن حاول ذلك. خاطبها بشىء من الجفاء لكنها كانت تعامله بلين ورقة – متناسية تماما وعن عمد كل ما حدث - مرغمة إياه على الابتسامة ، فاضحة أمامنا مشاعره الحقيقية تجاهها.. ياحلاوة الحب ياناس!!

فى ذلك اليوم – وبحضور حازم – احتفلنا جميعا بعودة ست الكل وعودة الهدوء والصفاء معها الى البيت. عزفت على البيانو وغنيت ، ثم لم أجد حرجا فى أن أرقص أمام حازم على أنغام المقدمة الموسيقية لأغنية ألف ليلة وليلة لمعشوقتى أم كلثوم. كانت المفاجأة الرائعة أن اندمج معى حازم هو الآخر فقام ورقص معى بطريقة مضحكة أغرقتنى فى دوامة من السعادة.

لما كان الزمن كفيلا بسحق أقوى الأحداث وإطفاء نيرانها المشتعلة ، فبعد مضى وقت قليل تجاوزنا جميعا أزمتنا بل ونسينا ماحدث وكأنه بالفعل لم يحدث. ابتلع الذكر الاسكندرانى هزيمته أمام تمرد أمى الناجح محاولا أن يخفى عنا نظرة انكسار تجلت فى عينيه.

فى قاعة أحد الفنادق الأنيقة جلست مع حازم نتبادل التعارف والتفاهم والمودة. يافرحة ماتمت أخذها الغراب وطار. العريس اللقطة يعانى من مرض ذى علاقة بقدرته الجنسية ، مازال خاضعا للعلاج على أمل كبير – على حد قوله – بالشفاء. تسارعت ضربات قلبى وأنا أستمع الى هذه المعلومة المخيفة. ألن يأتى اليوم الذى تكتمل فيه فرحتى يارب؟..سألته وقد جف ريقى واصفر وجهى:

- منذ متى تخضع للعلاج؟
- منذ حوالى عام
- ألم يحدث تحسن يذكر؟
- للأسف لم يحدث الا تحسن بسيط ، غير أن أملى كبير فى الشفاء ، ولولا هذا الأمل ماصارحتك بالحقيقة
- وماذا أستطيع أن أفعل أنا فى ظرف كهذا؟
- أنا لا يمكننى خداعك. كل ما أرجوه منك أن تصبرى على قليلا
- وأنا أيضا لايمكننى خداعك فأنا أعشق الأطفال ، فضلا عن أن حياة زوجية بلا جنس لايمكن أن يكتب لها الاستمرار والنجاح مهما تفاهم الطرفان وتحابا

قال وقد سقطت رأسه الى الأرض:

- معك حق

- اعذرنى يا حازم. هناك سؤال آخر يلح على
- تفضلى
- لماذا لم تصارحنى بذلك قبل قراءة الفاتحة؟
- لست أدرى.سميه ضعفا منى أو أنانية أو تشبثا بالأمل فى الشفاء

قالت لى أمى مفجوعة :

- يخرب بيتك. كيف جرؤت أن تكلميه بهذه الصراحة الموجعة؟
- هو الذى اضطرنى الى ذلك
- ألم تشعرى بالخجل أو الحياء؟!
- لاخجل ولا حياء فى مسألة مصيرية كهذه تخص صميم حياتى
- أنا مندهشة من جرأتك
- وأنا واثقة أنك لو كنت مكانى لفعلت مثلى
- والله انت بنت جدعة. أحسدك على إجرامك هذا

لست أدرى لماذا اتفقت مع أمى على إخفاء تلك المأساة عن أبى . أحيانا يجتاحنى شعور بأن الرجال على حق ، وأننا ناقصات عقل ودين ، وأننا المسئولات عن تعاسة حظوظنا فى الزواج، وأن الاعتماد على الرجال أسهل بكثير من العناد ومحاولة تحقيق الذات بالصراع معهم وكيل الاتهامات لهم بالحق والباطل ، وإلا فما الحرج فى أن نقول لجميل الحقيقة ان كنا – أنا وأمى وكل النساء – ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فيقوم الرجل بدوره ونقوم نحن بأدوارنا دون خلط للأمور؟..

لا أستطيع أن أقول إلا أن جسدى وجسد أمى هما المسئولان عن هذا الحرج الذى جعلنا نخفى الحقيقة عن رجل البيت وسيده.. ياه.. ما أروع هذه الكلمات: "رجل البيت وسيده"!..أى حمل ثقيل ينزاح عن كتفى حين أجد الرجل الذى ألقى بهمومى وأعبائى ومشاكلى على كتفيه ، وأودعه أسرارى وأمنياتى ، لأنه رجلى وسيدى بحق وعن جدارة.

تساءل أبى فى حيرة وأسف عن سبب فسخ الارتباط المبدئى مع أسرة حسام:

- أريد أن أفهم السبب ياجماعة

أجابته أمى بنبرة تخفى كذبها:

- الولد غير طبيعى ياجميل

ثم فى محاولة ناجحة لاحتواءه – بخبث الأنثى - أطلقت صهلولة مدوية ذات مغزى واضح ، انشرح صدرى لها كما لو كنت رجلا. سأل فى لين وطراوة بتأثير ما كان من أمى:

- ما معنى غير طبيعى؟..فهمونى ربنا يكرمكم

كان لابد أن أحتوى الموقف فقلت له بهدوء:

- ببساطة لم تتفق كيميائى مع كيميائه
- هكذا فجأة؟..وبعد كل هذا الرقص والغناء وتحزيم الوسط !!
- لحظات السعادة لاتراجع يا والدى فهى نابعة من داخلنا فقط
- لكنى لاحظت أنكما كنتما فى منتهى السعادة معا ومنذ اللحظة الأولى للقائكم ، فما الذى حدث؟
- وبعد معك يا والدى؟..هناك أمور نسائية نخجل من الحديث عنها مع معاليك
- يا بنت الكلب ستضيعين على نفسك فرصة رائعة من بين كل الفرص التى جاءتك وربما لا تعوض
- ولا يهمك
- كيف لايهمنى وأنت قاعدة فى أرابيزى. وجودك معنا كل هذا العمر يقلقنى. يزعجنى. أخشى أن أصاب بالضغط من تحت رأسك. أعملى خيرا وريحينى يابنتى
- اعمل خيرا حضرتك يابابا ولا تقلبها دراما.

وجدت نفسى متجهة الى البيانو. قال ناقما:

- اعزفى وغنى ياستى . أنا عارف أن شللى سيكون على يديك

لو تركت نفسى على سجيتها فى تلك اللحظة لما عزفت وما غنيت ، وإنما بكيت سوء حظى وضياع فرحتى الشديدة بهذا الشاب الجميل.

راح أبى يبسمل ويحوقل ويضرب كفا بكف ، بينما أسرعت الى ملاذى وحبيب قلبى وليد. أحتضنه وأبثه حيرتى ولوعتى بالنظرات المتبادلة ونبضات القلبين الحائرين كل فى دنياه. تفاؤلى بهذا الطفل الجميل يفوق الحد. التصاقه بى جعله يشاركنى معظم وقت فراغى ، خاصة حين يجدنى أشاهد الأفلام الهندية التى أعشقها والتى حفظ أسماء أبطالها مع تكرار المشاهدة.

سألته فجأة وبلا تمهيد:

- هل تظن ياوليد أننى سأتزوج يوما؟
- طبعا ياماما مشيرة
- ترى من سيكون العريس؟
- سلمان خان

أقهقه من قلبى بفرحة ، فوليد مثلى يحب الممثل الهندى خفيف الظل سلمان خان. وأسأله:

- ومتى يتم الزواج ان شاء الله؟
- قريبا جدا

مرات عديدة بعد انصراف بعض التتار كنت أسأله:

- ما رأيك ياوليد هل يصلح لى هذا الرجل؟

أحيانا يقول لا وأحيانا يقول نعم. أسأله عن سبب القبول أو الرفض فيجيب بثقة وحسم:

- لا أعرف!

وكان الحاكم الاخوانى للبلاد فى عامه الأسود يثرثر يوما فى التلفزيون بينما أشاهده وأنا فى غاية من التقزز والاشمئزاز ، ممتعضة من شكله ومضمونه وقوله ومن يمثل من جماعة ارهابية دموية لاتعرف لكلمة الوطن معنى. سألت وليد:

- هل سيمشى هذا البنى آدم ويفارقنا ويترك الحكم لأهله

ولأول مرة يقول بثقة:

- أكيد

وبالفعل صدقت نبوءته.

***

-10-
فصل خامس من الكتاب
****

هذا العريس الهمام جلبه لنا أبى من النت.طويل عريض سميك يسبقه فى خطوته كرشه المتضخم غير المتناسب مع سنه الذى لايتجاوز الرابعة أوالخامسة والثلاثين. جاء تامر وحده. يشع الغرور من عينيه. يتباهى بكونه مهندسا بكبرى شركات البترول حيث المرتبات والحوافز الباهظة والبعثات التى لاتتوقف الى أوروبا وأمريكا. يتحدث بلباقة غير عادية وبأدب جم مراعيا قواعد الاتيكيت فى حركاته وسكناته وانتقاء ألفاظه ليبدو انسانا شديد التحضر. تتخلل عباراته كلمات فرنسية وانجليزية لم أتبين ان كانت تصدر منه عن غير قصد أو عن عمد . رغم ذلك فقد كانت تستفزنى ، إذ لامعنى يصلنى منها سوى استعراض غير مبرر لثقافته الغربية أو لتخرجه فى مدارس اللغات الأجنبية. بعد حوار قصير أدلى الينا بتصريح خطير أن هوايته الأساسية فى الحياة هى الأكل. كان هذا التصريح بمثابة مدخل منطقى لأبى كى يقتاده الى المائدة.

أصر أبى على دعوته للعشاء ليفصح له عن كرمه الزائد وقد امتلأت المائدة بما لذ وطاب من خيرات الله . كنا قد أعددنا عشاء مميزا من باب الاحتياط يتكون من اللحم والفراخ والمحاشى والخضروات ، كما أعددنا طبقا من سلطة الأسماك يحتوى على الجمبرى والسبيت وقطعا من لحم الوقار وقشر البياض وقواقع الجندوفلى وبلح البحر ، وكأننا كنا على علم يقين بدرجة طفاسة العريس.

من المعتاد ألا يقدم طبق سلطة البحر أو السى فود الا مع وجبات السمك ، لكن ماذا نفعل مع كرم المصريين الذى يصل غالبا الى حد السفاهة؟.. مسح عريس الغفلة المائدة عن آخرها. كان يأكل بتلذذ صريح سافر وكأنه يأكل لآخر مرة فى عمره. فاقت متعته بالطعام متعة محروم يرى الأكل لأول مرة بعد طول جوع. خيل الى أنه يكاد يبكى من فرط متعته الطاغية بمضغ الطعام وتذوقه.

أصاب الذهول أبى ، أما أمى فقد انتابتها موجة هستيرية من الضحك المكتوم ، لم تستطع السيطرة عليها فغادرت الغرفة ولم تعد الا بعد أن هدأت الموجة. على الفور اتصلت بالعقيد هانى وهوأحد أقاربها من العاملين بمباحث امن الدولة . اعتادت أن تلجأ اليه كلما أرادت تستفسر عن عريس جديد وتعرف المعلومات الأساسية عن أسرته قبل أن تطمئن الى مصاهرته. طلبت منه البحث و التحرى عن هذا المفجوع وأسرته.

المهم أنه لم يتحدث معى كثيرا.معظم الوقت أمضاه فى الأكل. سألته عن هواياته الأخرى غير تناول الطعام فقال انه ليست لديه هوايات أخرى ، الا أنه يتسلى أحيانا بتحضير الأرواح. نظرنا أنا وأبى وأمى الى بعضنا البعض فى دهشة ولم يعلق أحدنا بكلمة واحدة على هوايته الرائعة. سألته بفضول شديد:

- ما رأيك فى الرئيس عبد الفتاح السيسى؟
- أنا لا أحب السياسة ولا أقرأ الجرائد أو أتابع الأخبار

فجأة قالت له أمى بلهجة كادت تقتلنى ضحكا:

- تحب يابنى أجيب لك طرشى يمكن يفتح نفسك؟
- ياريت يا طانط..ميرسى جدا

لم ينتبه لسخريتها منه. اضطرت الى القيام وعادت حاملة طبقا مليئا بالطرشى والمخللات. وضعته أمامه فأتى عليه بأكمله.

بعد أن انتهى تماما من مسح كل الأطباق التى أمامه قال بسعادة غامرة:

- أكلك جميل جدا ياطانط..سلمت يداك
- تسلم يابنى كان الله فى عون الست والدتك
- والدتى عليها رحمة الله
- من المؤكد أنها لم تكن تجد الوقت لمغادرة المطبخ حتى تلاحقك

- فعلا يا طانط ربنا يرحمها
- ومن الذى يعد لك الطعام حاليا بالمنزل؟
- هناك طباخ يعد لى طعام ثلاثة أيام أولا بأول

بعد أن شرب الشاى تمطع وفرد ذراعه اليمنى تجاهى محاولا ضمى اليه وهو يقول ببساطة وكأنه فى بيته ، أو كأننا زوجان أصابهما الملل من طول المعاشرة:

- تعالى جانبى
- جانبك ايه يا جدع انت ؟..انت مجنون والا ايه؟!

فوجئنا بعد ذلك أنه راح يملى علينا شروطا تعجيزية لاتمام الزواج وكأنه يمن علينا بهذه المصاهرة. غضب أبى وصاح فى وجهه:

- قبل أن تواصل شروطك..هل عندك شقة؟
- لا
- وأين تنوى المعيشة مع زوجتك ان شاء الله؟!
- الغرف المفروشة تملأ المدينة ياعمى لحين ميسرة

بعد أن نطق بهذه الجملة التى استفزت أبى بشدة ، راح يتفرس فى وجوهنا بتمعن وبنظرات أشبه بنظرات التشفى والرغبة فى الانتقام لست أدرى لماذا أو من ماذا.

انصرف أبى من الغرفة ساخطا دون تعليق. نكست أمى رأسها فى حزن وكأنها تريد أن تبكى على نصيبى الذى غاب عنى طويلا والذى لا يعرف أحد متى يجىء. أما أنا فقد أدركت فى هذه اللحظة أن هناك حقيقة مؤكدة فى هذه الحياة اسمها الألم، وأننى مهما انتصرت عليه بالرقص والضحك والصخب والغناء ، فإنه سيظل يلازمنى الى أجل لست أعرفه. رغم هذا الهم الثقيل الذى جثم فى لحظة على صدرى ، الا أننى كنت واثقة أن توازنى لن يختل يوما ، ما دمت على ثقة أكيدة بأن الله لايريد لى ولأمثالى الا الخير والسعادة ، مهما ابتلانا بطول الانتظار ، ومادامت صابرين تدعو لى فى كل صلاة:

- ربنا يسعدك بابن الحلال يامشيرة يابنت صابرين

أشعرنى هذا الشاب بالمهانة الى حد كبير. جاء يأكل وينصرف غير عابىء بمشاعرى أو بتلهف والداى على اسعادى وقد بالغا فى الترحيب به، بينما لم يكن يستحق فى نظرى سوى الطرد والقذف بالأحذية والشباشب مصحوبا بسيل من اللعنات. ماهذا الذى نحن فيه يابنات مصر؟.. كيف نرتضى لأنفسنا أن نتعرض من حين لآخر الى مثل هذه المصائب والنكبات ، وأن نتحمل فى صبر ويلاتها النفسية والعصبية أملا فى العثور على رجل نحتمى بظله ونعيش معه بقية حياتنا بأى شكل من الأشكال؟..

...

حاولت نسيان ماحدث قدر المستطاع بالانهماك فى العمل بدار السعادة. ساعدنى على ذلك أن أحمد مراد قد أضافنى كعضو فى لجنة قراءة النصوص الأدبية المقدمة للدار. كنت أدفن انفعالاتى المتقدة فى القراءة ، وأذيب دهشتى من الحياة فى دهشتى من التجارب الانسانية المطروحة أمامى على الورق، والتى بذل فيها المؤلف من عرقه وعمره الكثير. غير أن هذا لم يمنعنى أن أتأمل بعمق واهتمام شديدين من منظور علمى بحت فى مسألة تأخر سن الزواج بالنسبة لى أنا وغيرى من البنات وكذلك من الشباب الذكور. يقودنى ذلك الى قراءة الأبحاث والإحصائيات المنشورة حول هذا الموضوع الذى يراه البعض كارثيا. كم هائل من المعلومات تفيض به مراكز الأبحاث الرسمية وغير الرسمية.

تقول احدى هذه الإحصائيات ان بمصر وحدها مايزيد على 13 مليون شاب وفتاة تجاوزت أعمارهم خمسة وثلاثين عاما ولم يتزوجوا، منهم مليونان ونصف من الشباب وحوالى عشرة ملايين ونصف من الفتيات فى نفس المرحلة العمرية. تقل هذه النسبة الى حد ما فى محافظات الصعيد والأرياف وتزيد فى الحضر.

تذكر هذه الأبحاث الأسباب التفصيلية – التى مللنا ذكرها والاستماع اليها - لانتشار العنوسة فى مصر . يرجعون هذه الأسباب فى معظم الأحوال الى ارتفاع معدلات البطالة وغلاء المهور والإسكان بخاصة ، وارتفاع تكاليف الزواج الأخرى الناتجة عن العادات والتقاليد المتبعة فى هذا الشأن ، وكذلك ارتفاع معدل التعليم عند الإناث ، فضلا عن تباين الكثافة السكانية من حيث الجنس ، حيث أن عدد الإناث فى عمومه أكثر من عدد الرجال.

يزيد الطينة بلة أن هذه الظاهرة أدت الى زيادة بعض الظواهر غير المقبولة اجتماعيا ودينيا مثل الزواج السرى والعرفى بين الشباب فى الجامعات، والشذوذ الجنسى بين بعض الفتيات. كما أن عنوسة الرجال تعتبر سببا فى إدمان المخدرات. وكثيرا ما تتعرض العانس للاصابة بأمراض نفسية مثل الكآبة والاكتئاب نظرا لفقدان حياة الأسرة والأمل فى الأمومة المزروعة فى غريزة كل أنثى على وجه الأرض.

عرفت أكثر من فتاة عاملة ترفض مبدأ الزواج لأنه سيقيد من حريتها وسيحرمها من التمتع بدخلها الذى تكسبه حين يلتهمه منها زوج طماع أو تضطر لمشاركته لعدم قدرته على الوفاء بأعباء المعيشة الزوجية اعتمادا على دخله فقط. الغريب أن بعضهن يتمتعن بقسط وافر من الجمال بحيث لا يستطيع أحد أن يرجع سبب اضرابهن عن الزواج الى نفور الرجال من قبحهن. كما أن انخراط البنات من شرائح عديدة بالمجتمع فى خط التعليم العادى والعالى قد قضى الى حد كبير على شعور الفتاة بالذل فى انتظار رجل يأتى ليؤويها ويطعمها فلا تستطيع حتى أن تتنفس الا بأمره وموافقته. رغم ذلك فكل يوم هناك فتيات متعلمات تجازف وترتبط ، لكنا نسمع بعد زمن وجيز أن الخطوبة قد فسخت لعدم التفاهم بين الطرفين.

لاحظت – بعيدا عن البحث – أن كثيرا من وقائع الفشل ترجع بالدرجة الأولى الى الفقر الفكرى الذى يعانى منه الطرفين ، فضلا عن انعدام التجارب الحياتية التى تؤهلهما للاستمرارية فى الارتباط. وكم من أسباب صبيانية تافهة مضحكة تبين فى النهاية أنها كانت السبب فى فسخ الخطوبة أو الطلاق بسهولة تامة حتى لو كان هناك أطفال.

ظروف اليوم غير ظروف الأمس تماما. لامفر من أن يدرك الشاب والفتاة ذلك ، فالقصة التقليدية لتجهيز غرف الأنتريه والسفرة والنوم والصالون والمطبخ ستنتهى حتما ، كما تشير بعض التجارب الى ذلك. بالتالى لم يعد هناك مبرر لطلب مهر كبير ومؤخر صداق أكبر من العريس بحجة تعزيز ابنتهم ورفع قيمتها ومقامها ، تلك مفاهيم أصبحت بالفعل على وشك الانتهاء.

أما بطالة الشباب فهى مشكلة سياسية واقتصادية من أساسها وليس بيد الشباب الا أن يعملوا ولو فى غير مجالهم لحين العثور على العمل المناسب بدلا من البقاء فى البيت أو التنطع على المقاهى. لقد لفت نظر رئيس الدولة منظر فتاة بسيطة الحال تجر عربة محملة لآخرها بالمأكولات ، تدور بها على المحلات من الصبح حتى المساء قبل أن تعود الى بيتها وقد عانت من البرد والمطر ووعورة الطريق. كانت سعيدة الحظ إذ كوفئت فوق ما تتخيل بالمال والسكن والرعاية ، إذ أراد الرجل أن يجعل منها نموذجا يقتدى للشباب الذى يعمل ويكد ولا ينتظر الوظيفة الحكومية المكتبية أو يقع فريسة للفراغ القاتل الذى لايؤدى الى خير.

اقترح أحد المتفذلكين من المتقافزين ليل نهار بين الفضائيات المختلفة لحل مشكلة العنوسة أن يقبل الجميع بفكرة تعدد الزوجات كأمر واقع لامحالة ولابديل ، مروجا له بقصيدة شعر ركيكة كأسلوبه ومنطقه. يلقيها وهو على اعتقاد خاطىء أنه خفيف الظل وأن السامعين سيقبلون ما بها لأجل خاطره. يقول فيها:

جلسا سويا والليالى مقمرة/ يتغازلان ويأكلان مجدّرة
قال الحبيب ممازحا يازوجتى /انى أراك فقيهة متنورة
ان العنوسة فى البلاد كثيرة / وكبيرة وخطيرة ومدمرة
ولقد وجدت اليوم حلا رائعا/ لو تسمحين حبيبتى أن أذكره
قالت تفضل يا حياتى اننى / ممنونة لمشورتى ومقدرة

فأنا لمشكلة العنوسة عندنا / محزونة وكئيبة ومكدرة
قال الحبيب أيا ربيع العمر لا / هذا كلام حكيمة ما أكبره
لو أن كل رجالنا قد عددوا / لم يبق من جنس النساء معمرة
فإذا قبلت بأن أكون ضحية / ونكون للأجيال شمسا نيرة
فلئن رضيت فإن أجرك طيب / فجزاء من ترضى بذاك المغفرة
ضحكت وقالت يارفيقى انه / رأى جميل كيف لى أن أنكره
عندى عروس لقطة ترجو لها / رجلا ليسترها الحياة وتستره
فإذا قبلت بها سأخطبها غدا / قبل فوات الأوان فإننى متأخرة
هى لاتريد من النقود مقدما / للمهر ولا تريد أيضا مؤخره

كانت القصيدة أطول من ذلك بكثير ، وكانت مجموعة من المشايخ والملتحين يلتفون من حوله وهم يبدون صيحات الإعجاب والاستحسان بين الحين والآخر!!!

اقترح نابغة آخر إنشاء جمعية خيرية لتزويج الشباب استعانة بالانترنت. أما أكثرهم نباهة فقد أرجع الظاهرة بصفة أساسية الى الحالة الاقتصادية المتردية التى تعيشها مصر منذ سنوات عديدة، والتى خلقت مناخا مناسبا لتفشى العنوسة، حتى أن مصر أصبحت على رأس قائمة العنوسة فى العالم العربى كله.

تامر وأمثاله شباب يعانون من تأخر النضج الفكرى والنفسى ، فضلا عن ضحالتهم الثقافية الرهيبة. الزواج عند كثير منهم صار لايعنى السكن والمودة والرحمة ، وإنما يعنى القيد المزعج على حرية الأعزب. كان تامر مصرا على أن أواصل العمل وأن أضيف راتبى الى راتبه "حتى نرفع من مستوى معيشتنا"!!.. ورغم أنه جاء ليأكل فقط ثم ينصرف ، إلا أن عينيه كانتا مفتوحتان على آخرهما على راتبى الذى لايتجاوز نصف راتبه البترولى.

أما العريس ذو الحذاء القذر فكان يصر على بقائى بالبيت أغسل وأكنس وأمسح وأربى الأولاد وأتحمل لزوجته ، كما لو كنت جارية عند سيادته.. يا الهى تذكرت الآن قول نازك الملائكة:

ياهموم الشباب فيم تكونين
أحر الهموم والأحزان
هأنا فى الشباب تقتلنى الوحدة
والصمت والأسى يا هموم
أينما أتجه فثمة أحزان
أراها وحشة ووجوم
كل شىء أراه يملؤنى حزنا
ويأسا من مبهجات الحياة
.....

سارعت الى التخلص بسرعة من شحنة التشاؤم والاكتئاب النازكية بأن توجهت الى زيارة صفية . ميولنا دوما متقاربة ،جمعت بيننا فى صداقة وطيدة أحسب أنها ستدوم مدى العمر.

صفية من فريق العانسات المدرع والتى تتفق معى على أن أمر العنوسة لايجوز أن يكون مدعاة للحزن والقلق والألم . تقول :

- **"ان حياة العنوسة ليس بها أية مسئولية فمساحة الحرية لاحد لها ، الخروج والسهر والسفر، فأنا مرشدة سياحية جوالة فى بلاد الله الرائعة ،لكن اذا تزوجت فمن الصعب أن أمارس هذه الحرية وستكون القيود كثيرة ، وهذا ماشعرت به عندما خطبنى أحدهم من قبل وقرفنى فى عيشتى حتى نجحت فى التخلص منه"..**

كلما التقيت بالبنت صفية ارتفعت معنوياتى الى السماء.

- **" إن أى امرأة متزوجة لابد أن تعانى من قيود عديدة وتتمنى فى قرارة نفسها أن تعيد الحياة من جديد ولا تتزوج"..**

الزواج عندها مسألة شخصية قد تختلف أسبابها وخلفياتها من شخص لآخر، وقد لايكون شيئا ملحّا عند الكثيرين ، فلماذا تتوقف الحياة اذا لم تتزوج الفتاة ؟..

أنا وصفية نعرف أسرار بعضنا البعض ويحمل كل منا للآخر كل ما بقلبه من حب ومودة.. حضورها يشعرنى بالأمان والثّقة. إن واجهتنى مشكلة فهى حاضرة – ولو كانت غائبة - لتفهّمى والإصغاء إلي . هى كالملاك الحارس لا يتوانَى عن رعايتى بصمت ومحبّة دون أن يفرض نفسه.

.....

أبلغنا العقيد هانى أن والد العريس كان متهما فى قضية رشوة ، وأنه سبق أن تقدم ببلاغ الى الشرطة يتهم فيه زوجته بضربه بكعب حذائها وإصابته فى رأسه اصابة تستدعى بقاءه بالمستشفى لأكثر من واحد وعشرين يوما.

فإذا كان هذا الشبل من ذاك الأسد ، كان تامر نموذجا لرجل الزيجة الفاشلة. عموما فقد نجحت فى زمن قياسى من غسل يدى منه بالماء الساخن والشامبو والديتول.

كان مجلس الذم فى تلك الليلة حافلا بالنكات والسخرية من هذا الوحش الأكول الذى ماجاء الا ليلتهم كل مالدينا من طعام.همست وردة فى أذنى ضاحكة بلا حياء:

- **أنا لايمكن أن أتصور أن ينام هذا الثور فوقك يامشيرة**

ضحكت معها من قلبى ..

- **معك حق والله ياوردة. كان سيكتم أنفاسى ويزهق روحى من الدقائق الأولى**
- **هذا إن لم ينم نوما حقيقيا قبل أن يفعل أى شىء**

بعد أن انفض المجلس همست فى أذن وردة:

- **اسمعى ياوردة. سأطلعك على كتاب مترجم عن الهندية يوضح عشرات الطرق لالتقاء الذكر بالأنثى حتى لو كان الذكر فى حجم فيل ، ولو كانت الأنثى حاملا فى الشهر التاسع.. لكل حالة طريقتها عندهم**
- **آه يا مجرمة..تذاكرين من ورائى!!!**

****

-11-

طالت غيبة أحمد مراد فى الخليج. كان يتصل فى أحيان قليلة ليسأل عن وليد. طمأنته على الولد وأكدت على أنه سعيد بالمعيشة معنا وقد أصبح صديقا مسليا لأمى وأبى ، أما بالنسبة لى فقد أصبح محور الاهتمام الأول فى حياتى بعد أن غزا قلبى وتربع على عرشه. حين يقبلنى أشعر أن الكون كله راض عنى وأن الله عوضنى به خيرا عن أى مطلب دنيوى آخر. حين يحضننى أشعر أن حنان أمهات الدنيا لايمكن أن يناظر حنانى عليه أو حنانه على. تعلمت على يديه أن الدنيا كما تأخذ تعطى ، وأن اليأس حيلة الضعفاء. تسلحت بابتسامته الملائكية الطاهرة فى مواجهة الشعور المؤلم بالإحباط ، وقد أمدنى بطاقة غير عادية للصبر على مشيئة القدر.

عاتبت أحمد مراد يوما على طول غيابه وتجاهله لوليد. تعلل بأسباب تجارية ومالية كنت أشك أحيانا فى أنها حقيقية ، لايجوز اتخاذها ذريعة لإنكار الولد البرىء الذى أكد أنه ليس ابنه ، وانما هو ابن رجل مجهول ماتت سيرته بموت الزوجة التى لم يذكر لى اسمها حتى الآن. أحيانا أتمنى ألا يعود من الخليج الى الأبد حتى أحتفظ بإبنى وليد ملكا خالصا لى لاينازعنى فيه أب ولاتشاطرنى فيه أم.

صار أحمد يخاطبنى من خلال الهاتف بأسلوب ناعم لين ، رأيت فيه وسيلة غير كريمة لاسترضائى ، إذ يتصور واهما أن وجود وليد فى حياتى يشكل عبئا علىّ. قلبى ينفطر تأثرا لحال هذا الطفل المسكين الذى لم يعد له أحد فى الدنيا سواى. تستبد بى أحيانا رغبة فى الانتقام من أبيه الصورى بأن آخذ الولد معى وأهاجر الى بلاد بعيدة فأحرمه منه الى الأبد. أعلم أنه من المستحيل تحقيق هذه الرغبة سواء إرضاء لوالدى اللذان يتفانيان فى حبى ، أو كيدا فى أحمد لأنه لن يتأثر كثيرا بغياب وليد عن عينيه كما هو حاله الآن ، بل سوف يقول لسان حاله حينئذ:" بركة ياجامع أن جاءت منك".

غير أن سخطى على أحمد لم يكن شديدا كما ينبغى أن يكون بحكم موقفه اللاإنسانى من الطفل ، فقد كانت تحد منه مشاعر غامضة تجاهه فيها شىء من الشفقة ، وكأنه يمد يده لتحنو عليه يد أخرى تصحبه الى بر الأمان وتوقف نزيف جرحه الغائر، فلا يجد يد مخلوق ممدودة اليه. يتضاعف حزنه ويزداد بؤسه ويذوب فى وحدته وعزلته وصمته. تمنيت أن أكون أنا صاحبة هذه اليد، فالحزن العميق فى عينى هذا الرجل يجذبنى نحو عالمه الغامض بقوة تتزايد مع الوقت، لكنها غير ذات صلة بكونى امرأة وكونه رجلا. هى نبع انسانى من فيض الحق والخير أقدمها طواعية لرجل مهذب يعشق الصمت ويطوى أسراره تحت جوانحه.

فوجئت بخطاب يصلنى بالبريد الخاص من الخليج. قفزت بعينى بين السطور حتى رأيت توقيع أحمد مراد فى نهاية الخطاب.

" آنسة مشيرة:

أحييك تحية مخلصة من القلب. منذ عرفتك وأنا أريد أن أفتح لك قلبى وأغير من طبعى الصموت.كنت دائما أتردد.أنا ياعزيزتى أخاف جدا من بوحى بلسانى لأى انسان عن شىء يخص حياتى. أنت الاستثناء الوحد الذى أطلعته على بعض من خصوصياتى الداخلية لمجرد أنه كان يجب على أن اجيب على أسئلتك. لو لم تسأليني لما ذكرت شيئا مما ذكرته لك ، ومالم تسأليني عنه لم أكن لأذكره لك. لكنى لا أشعر الآن بالحرج وأنا أخاطبك على الورق حيث أجد الجرأة على مكاشفتك بما بداخلى من غير حرج. ان السر الذى أكتمه عنك يجثم على صدرى ويرهقنى بل ويعذبنى كثيرا.

لقد عشت مع زوجتى الراحلة أجمل أيام حياتى ، وسامحينى ان لم أذكر اسمها لك حتى الآن ، فذكر اسمها يثير آلامى وأوجاعى وتقلباتى النفسية. ذقت معها الشهد من حلاوة هذه الأيام مثلما ذقته من رضاب شفتيها المسكر. لم أكن أتصور أبدا أن تفنى هذه اللحظات أو أن يموت هذا الحب. كنت مرتاحا لها بقلبى وعقلى . الشىء الوحيد الذى كان يحيرنى بشأنها هو تساهلها فى منح جسدها لى قبل الزواج رغم تمنعى فى البداية عن الاستجابة لها . لم أكن أعرف بالطبع قصتها مع جارها الشاب حتى ذلك الحين. جمعت بينهما قصة حب ملتهبة منذ الصّبا. لم تستطع

مقاومة مشاعرها تجاهه رغم ارتباطها بى. كنت أفسر هذا التساهل – الذى لم يقتصر علىّ – تفسيرا ساذجا بأنه تعبير جارف منها عن شدة حبها لى وثقتها أننا سنكون زوجين فى كل الأحوال. رغم أنها نجحت فى النهاية فى استدراجى الى هذه اللعبة الخطرة ونحن فى فترة الخطوبة، الا أننى كنت آخذ حيطتى بشدة حتى لايقع المحظور قبل أن أدخل عليها بصفة شرعية.

عندما اعترفت لى بواقعتها الأليمة مؤكدة أن ما ببطنها ليس ابنى ، إذ بدأت ممارساتى معها متأخرا بعد وقوع الحمل بزمن ، كان بيدى أن أنهى العلاقة ولا أستكمل اجراءات الزواج، لكنى أشفقت عليها والتمست لها العذر. حاولت أن أجعل من نفسى ملاكا حارسا على الانسانية المعذبة فى لحظة من لحظات ضعفها التى يمكن لى أو لأى انسان أن يتعرض لها. أتممت الاجراءات متناسيا ما اعتبرته خيانة صريحة من جانبها ، إذ أخفت عنى الحقيقة ولم تكشف عنها الا فى وقت متأخر حرج. رغم ذلك فكان من أسباب تراجعى عن حذفها من حياتى هو إقدامها على مصارحتى بشجاعة تحسد عليها قبل الارتباط الشرعى مباشرة.

أخبرتنى أن صديقة لها تعمل طبيبة لأمراض النساء والولادة قالت لها إنه لامعنى لإجراء عملية ترقيع لغشاء البكارة أو زرع بديل له أو عمل أى شىء يخفى معالم الفضيحة، فالغشاء لم يكن ممزقا بل كان سليما تماما كما صرحت الطبيبة بعد الفحص.

غامرت بإعلامى بالحقيقة فى اللحظات الأخيرة فغفرت لها وسترت عليها ويقينى راسخ بأن الله غفور رحيم.

ليلة الزفاف حاولت أن أنسى هذه القصة السخيفة وأحذفها من ذاكرتى ، وأن أبدأ معها علاقة جديدة خالية من شوائب الماضى. وقف القدر لى بالمرصاد إذ أصابنى – لأول مرة – فشل محقق فى مجامعتها. كررت محاولاتى دون جدوى. فى المرحلة السابقة كانت كفاءتى رائعة من دون إتمام العلاقة الطبيعية حتى نهايتها – كما كان يفعل معها صديقها السابق من خلف ظهرى – أما اليوم عندما أتيح لى أن أمارس معها المتعة الربانية كاملة فقد امتنع عنى جسدى ، أو أنا الذى امتنعت – لا إراديا – عنه..لست أدرى. كلما أخذتها بين أحضانى تسلل بين جسدينا خيال غامض لرجل مجهول ذو قوة طاغية يزيحنى بعنف. يفترس جسدها ويغتصبه منى. أعجز عن مقاومته أو دفعه عنها.يصيبنى ارتخاء تام ويزداد تدافع ضربات قلبى فى عنف شديد ، ويتساقط العرق على جبينى وظهرى وتحت إبطى، فأرتمى منهارا على الفراش وأنا ألهث كمن صعد ألف درجة على سلم طويل.

كانت تشفق على حالى وتربت على صدرى وظهرى وتمسح لى عرقى وتمرر أصابعها بحنان على شعر رأسى حتى أهدأ وأروح بعد ذلك فى نوم خفيف أشبه بالصحيان. كلما حاولت إعادة التجربة منعتنى من ذلك حتى لايتكثف شعورى بالاحباط فأصاب بعجز نهائى عن الرجوع الى طبيعتى السليمة. قالت لى فى ليلة من ليالى الفشل:

- هل لك أعداء يكرهونك؟
- حسب اعتقادى لايوجد من يكرهنى على وجه الأرض
- لابد أن تراجع نفسك. ما من انسان على وجه الأرض إلا وله أعداء حتى لو لم يعرفهم
- لعلك لاحظت محبة الناس لى ومحبتى لهم أهلا وأقارب وأصدقاء
- أنا واثقة أن هناك عدوا قد عمل لك عملا
- عيب على جامعية مثلك أن تعتقد فى مثل هذه الخرافات
- وعيب على جامعى مثلك أن ينكر السحر وهو موجود فى القرآن

عندما نزلنا بالحوار الى هذا المستوى غادرت البيت بلا هدف سوى أن أنطلق وأمشى بلا هدف حتى أروح عن نفسى المكدودة وذهنى المجهد وجسدى المهزوم.

وجدت نفسى دون أن أدرى واقفا أمام وكر الشيخ زكى الذين يصفونه بصاحب الكرامات. قوة خفية لاتمت الى عقلى وثقافتى بصلة هى التى دفعتنى الى هذا المكان. كان الشتاء غزيرا والريح باردة. غرفة صغيرة تتوسط حديقة قديمة جرداء.طابور طويل يقف أمام بابه متوسلا

الدخول. شاب ذكرتنى ملامح وجهه الاجرامية بنظرية لامبروزو فى أشكال جماجم المجرمين، ينظم الدخول الى الشيخ زكى والخروج من جحره. من بين الواقفين لمحت أستاذا جامعيا أعرفه ومدرسة محترمة من جيراننا تعمل بالتعليم الإعدادى. لايوجد مكان بالمنطقة يمكن الاحتماء به من المطر. الجميع يقفون فى صمت واستسلام وقد غرقوا فى ملابسهم. فعلت مثلما فعلوا.

عندما جاء دورى لم أدخل بل سارعت بالهروب من هذه المهزلة وقد اختمرت برأسى فكرة مذهلة. اننى اذا فشلت مع زوجتى ولى مبرراتى النفسية فى ذلك ، فلا بد أن يختلف الأمر لو جربت العلاقة مع امرأة أخرى، سائلا الله أن يغفر لى زلتى لو واتتنى الشجاعة على إتمام التجربة.

لم أضيع وقتى. سارعت الى بيت امرأة من عاهرات المجتمع الراقى ، يمكنها أن تجيبنى بالتجربة الحية والممارسة الفعلية عن السؤال الذى يحيرنى. استقبلتنى فى دهشة وترحاب فلم نلتق من سنوات طوال. فى البداية اندهشت حين عرفت أننى زوج حديث جاء ليمارس هذه العلاقة مع امرأة أخرى غير زوجته. بعد قليل من الثرثرة لتبديد جو الارتباك الذى جمع بيننا فى البداية قالت:

- أنا لا أتعجب، فكثير من العرسان مروا علىّ فى أسبوعهم الأول
- اذن فلست أعجوبة فى هذا الشأن
- أبدا.الرجال عالمهم مفضوح رغم أنه يبدو غامضا
- لماذا مفضوح وغامض فى آن؟
- لأنه ورد علىّ نماذج منهم لاتخطر لك ببال. كلهم باحثون عن الحنان والعطف والحضن الدافىء، وعندما يأتى الحديث عن مآسيهم فإن معظمهم يتعمد إخفاء الحقيقة. لقد عرفت منهم الباكى المتشنج والهيستيرى المجنون والجبار الذى تنحنى أمامه هامات الرجال مع أن زوجته تحتقره وتهينه وتضربه بالحذاء وتسبه بأبشع الألفاظ. العاقل الوحيد الذى عرفته بينهم كان زوجى رحمه الله
- لقد ثرثرنا بما فيه الكفاية. فلنشرب معا كأسين آخرين فى صحة زوجك العاقل عليه رحمة الله

قبل أن نذهب معا الى الفراش قامت بإعدادى وتأهيلى نفسيا وجسمانيا لما سيحدث باتباع أساليب غير تقليدية فى نبرات الصوت ودرجات التعرى وخفوت الأضواء واختيار العبارات وأنواع العطور والمشروبات والرقص وأنغام الموسيقا. أغلب ظنى أن خبرتها بالرجال قد نجحت فى تمهيد جسدى لعلاقة لاتعرف التلقائية، كما لاتعرف المشاعر والعواطف. هى تدرك جيدا أنها علاقة تهدف فى المقام الأول الى اختبار قدرة رجل عجز فى مكان ويريد أن ينفى هذا العجز عن نفسه فى مكان آخر. المكان الأول مشروع وقانونى ،أما الثانى فغير مشروع وغير قانونى. تلك الأمور لاتعنيها فى شىء، فهى عاهرة بمعنى الكلمة ، ولاشك تؤمن بالمثل الشعبى القائل:"الحرام حلو"!!

بدأت الدماء تسرى فى عروقى وأعصابى وأحسست بقوة الرجولة تعاودنى بشدة وترد الىّ ذكورتى الضائعة. ما أن بدأت فى ملامستها حتى عاودتنى العلة اللعينة ولم أستطع ان أفعل شيئا. غادرت الفراش ساخطا على نفسى وعلى الدنيا على عكس ما كنت أتمنى وأنتظر.

تأكدت فى ذلك اليوم أن علاقتى بزوجتى قد انتهت الى الأبد وقد تسببت لى فى هذه الكارثة. صارحتها بذلك دون مواربة. أصابها ذلك فى مقتل فرفضت الطعام والشراب وانطوت على نفسها بين الصمت والبكاء حتى ماتت. كأنها كانت تريد أن تحملنى مسئولية موتها لأكون أنا المجرم الذى قتلها ، لكن الضحية الحقيقة هى المجنى عليه الذى يكتب لك الآن مصرحا بكل أوجاعه.

لاتظنى يامشيرة أننى رجل وغد عديم الانسانية يتهرب من مسئوليته تجاه طفل برىء لاذنب له فيما حدث أو فى مجرد وجوده بالحياة. أقسم لك اننى أحبه لولا شبح أمه الذى ظل يطاردنى ومعه شبح الشاب المجهول ذو القوة الطاغية حتى تعبت تماما. انى أحمد الله أنك احببت وليد

مثلما أحبك هو الآخر، وأنا أستطيع أن أجزم أننى سوف أتخذ منه ابنا حقيقيا لأثبت لك على الأقل أننى لست أقل منك رحمة به وشفقة عليه. لكن كيف يمكن لهذا أن يكون لو لم نشترك معا فى احتضانه ورعايته؟.. كنت أتمنى الاسترسال فى الكلام حول هذا الأمر لولا أننى لم أحظ منك ولو بلمحة واحدة ، بنظرة موحية بأى شىء. انخراطك الرهيب فى العمل وثقتك الزائدة بنفسك صنعا بينى وبينك حاجزا من الحذر والتردد. أنا لا أعرف كيف تفكرين وكيف تشعرين.. وأكتفى بهذا القدر لحين أن نلتقى قريبا بإذن الله"..

المخلص: أحمد مراد

****

هل تذكر يا حبيبى يوم دمجنا عيدى ميلادنا فى يوم واحد وقررنا أن نحتفل به على شاطىء العجمى بعيدا عن العيون؟.. كان الجو شديد البرودة ، أما المطر فكان لايتوقف الا ليعاود الزخ من جديد. فى الشتاء لاشماسى ولاكراسى ولا أماكن للاحتماء الا بداخل الكازينوهات البعيدة عن الشاطىء. لست أدرى كيف وقع اختيارنا على ذلك الموقع المهجور، حيث جلسنا متجاورين على الرمال الرطبة ونحن نقهقه من الضحك على نكات سخيفة نتبارى فى درجة سخافتها حتى نضحك أكثر وأكثر. فجأة ظهر أمامنا جمل ضخم يقوده رجل عابس الوجه نارى النظرات. نهرنا لجلوسنا بهذا المكان قائلا انه ممنوع. أصابه حقد شديد تجاهنا لما رأى السعادة متفجرة من عيوننا. حاولت مجادلته فضغطت على يدى أن ننسحب بهدوء ونتركه ينعم بغبائه. غادرنا الشاطىء مهرولين ضاحكين. فوجئنا به يطلق الجمل من خلفنا ليخيفنا ، لكن الجمل تباطأ ولم يستجب له. أصابنى الخوف فضممتنى بعفوية الى صدرك وقلت لى:

- **قفى يامشمش**

ووقفنا فسحب الرجل جمله دون أن يشفى غليله من الحب والضحك والسعادة. مازالت نظراته تذكرنى بالموت فهؤلاء البنى آدميين يكرهون الحياة..نحن نعشقها ونذوب فى عسلها.

قلنا نؤجل الاحتفال للمساء. توجهنا الى حدائق المنتزه واخترنا مكانا جميلا مسقوفا يحيط به النجيل والأشجار والورد. طلبنا أربع قطع من الجاتوه لو تذكر. ألصقناهم ببعضهم البعض صانعين منهم "تورتة" مصغرة. أشعلنا فى وسطهم شمعة.فتحنا الترانزستور. كان عبد الحليم يغنى "أهواك". ونحن نشرب الشاى سألتك:

- **هل أنت على يقين من أننا سوف نكمل حياتنا معا الى الأبد؟**
- **أجيبك بعد أن نطفىء الشمعة معا**

أطفأنا الشمعة وقبلتنى فى حياء على خدى وربت على ظهرى.يا الهى..ماهذا الحنان الذى يسرى من كفك الى كل خلية فى بدنى. انه الحب أيها الرجال الأوغاد المتسلطين علينا بأفكاركم المتخلفة..كريم رجل آخر غيركم.

- **لم تجب عن سؤالى**
- **نعم سنكمل مالم تتعارض ارادتنا مع ارادة القدر**
- **القدر هو الله**
- **نعم**
- **والله رؤوف رحيم محب لعباده الذين يحبون الحياة ويحبونه لأنه واهبها لهم**
- **نعم**
- **ايه الحكاية؟..كله نعم نعم؟!**

****

-12-

بعد قراءتى لخطاب أحمد مراد اختلطت برأسى شكوك وظنون واحتمالات. لمحت فى الخطاب شيئا من الكبر يطغى على كلماته رغم اشفاقى على حالته البائسة. انه يخشى التصريح بما يريد من باب الكبر.لم يفتح الله عليه بكلمة حلوة يقولها لى ولو من باب جر الشكل العاطفى الذى تحبه كل فتاة. أمقت غباءه الاجتماعى. هذا الفصيل من الرجال مزعج وغير مريح. أنا لست بحاجة الى أحد منهم، خاصة حين يكون جسده معاندا له ، الأمر الذى يزيد من احتمال تفاقم حالته النفسية على المدى القريب ، والويل – حينئذ – لامرأة كتب عليها معايشته.

طويت الخطاب وغادرت الدار الى غير رجعة. كان هذا قرارى النهائى بعد أن عانيت مؤخرا من الملل من روتين حياتى اليومي المتكرر ومن العرسان التحف الذين يتعاقبون على دماغى ، الواحد يلى الآخر ، ومن قلق أبى وصمت أمى وثرثرة الصديقات وإزعاج الفضائيات ووقاحة الاحصائيات التى تتناولنى وامثالى بالدراسة والتحليل والاستبيان كما لو كنا فئران تجارب من الطبيعى أن تخضع للتجريب العلمى. كما أننى كنت بحاجة الى الابتعاد لفترة طويلة عن أحمد مراد . والحق أننى مللت من كل شىء فى الحياة حتى من نفسى.

منذ أيام قرأت إعلانا بأحد الجرائد عن دار للأعمال الخيرية تطلب مديرة لأحد الأفرع تنطبق علي مواصفاتها المطلوبة من حيث المؤهل والعمر والخبرة الثقافية. حددوا موعدا لإجراء اللقاءات مع المتقدمات لهذه المهنة الانسانية الرائعة. كانت الوظيفة من نصيبى.

لم أفكر فى عواقب تركى المفاجىء لدار النشر من أى اتجاه. على العكس كنت سعيدة لتخلصى من شحنة الملل التى استبدت بى مؤخرا. تغيير مكان العمل يسعدنى دوما إذ لم أعتد ان أطيق البقاء فى مكان عمل واحد لمدة طويلة. من المؤكد أننى بعد فترة طالت أم قصرت سوف ينتابنى الملل من المكان الجديد وناسه لأنه بعد وقت سيصير قديما، فأهرب منه الى مكان جديد.

هاتف داخلى خبيث يقول لى ان تنقلى الدائم والمستمر من عمل الى آخر ما هو الا أسلوب غير مباشر – وربما مباشر - للبحث عن عريس. أواجه هاتفى بالإنكار التام رغم يقينى بأن أساطين علم النفس سيؤكدون أننى أبحث بالفعل عن عريس بهذه الوسيلة ولكن فى عقلى الباطن ، ان لم أكن أريد الاعتراف بذلك صراحة لنفسى.

حين غادرت الدار كنت أعتقد أننى أوصدت الباب أمام أية علاقة محتملة بأحمد مراد. تبين لى بعد قليل من التفكير أن هذا الباب لا يمكن أن يوصد مادام وليد يعيش معى.

خلال أيام قليلة تمكنت من استيعاب تفاصيل العمل بالجمعية الخيرية. معظم رواد الدار كانوا من المقتدرين بوجه عام أو المستورين على الأقل. يمنحون تبرعاتهم للمستشفيات وأسر الفقراء ومرضى الكلى والسرطان وغيرهما. نستقطع جانبا أساسيا من التبرعات يضاف الى ميزانية الفرع الخيرى المختص بتزويج بنات الملاجىء وتسكينهن فى بيوت لائقة. كنت أشعر بسعادة لاتدانيها سعادة حينما يأتى رجل فقير يبدو من مظهره أنه على قد حاله ، ليتبرع بعشرة أو عشرين جنيها من دخله المحدود. أما الأروع والأجمل أن يأتى طفل صغير أرسلته أمه ليدفع بيده ما جادت به فيتعلم العطاء للمحتاجين من صغره.

الى جانب عملى بالجمعية كان على أن أقوم بفحص ودراسة بعض الحالات حيث أزور هؤلاء المحتاجين فى بيوتهم وأطلع على انحدار أحوالهم الاجتماعية والصحية والاقتصادية.

حضرت حفل افتتاح فرع جديد للجمعية لإيواء الأطفال اليتامى والمشردين. طقت فى دماغى فكرة جنونية تريح عقلى وبالى من امر وليد وأبيه. أعصابى لم تعد تحتمل المزيد من التوترات العاطفية والمتاعب النفسية. سوف أغلق صفحة أحمد وابنه وليد نهائيا بأن ألحق وليد بهذه الدار دون استشارة أحد على الاطلاق. شردت قليلا أفكر فى هذا القرار

فوجدت أن أحدا لن يعانى من قسوته إلا وليد المسكين. على أبيه حينئذ أن يواجه مشكلته وحده بشجاعة ولا يلقى بها على الآخرين بهذه اللامبالاة المزعجة. أما أنا فلن أتخلى عن زيارته ولو بصفة يومية حتى لا يتأثر بابتعاده عن أحضانى التى لم يعد له غنى عنها.

فى تلك اللحظة دخل الجمعية شاب وسيم فى حوالى الأربعين. تسمرت فى مكانى بمجرد أن لمحته. قوة مغناطيسية جبارة تشع من عينيه جذبتنى اليه. عشقت رومانسية نحافته الجميلة ونظراته الناعسة الحنون. ولما تكلم أسرنى صوته الدافىء بنبراته العميقة الواثقة. كانت ملابسه بسيطة للغاية لاتفصح عن مستواه المادى والاجتماعى.

هيا اظهرى على حقيقتك وواجهى نفسك يامشيرة. لهذا تغيرين أماكن عملك لسبب واضح آخر غير الملل والزهق والقرف كما تدعين. لكن من يدرى أو يهتم بأمرك ان كنت صادقة أم مدعية؟.لن يشعر أحد بالنار مالم تكوى أصابعه. دفعنى الزمن دون أن أدرى الى بوابة السادسة والثلاثين. بعد سنوات قليلة أجد نفسى فى الأربعين ويتضاءل أملى فى إنجاب طفل جميل يملأ علىّ حياتى من رحمى وصلب رجل أحبه. لماذا لايكون هذا الشاب الجميل زوجى، واللعنة على المكتبة ودار السعادة والجمعية الخيرية وعلى الدنيا بأكملها. دعوته للجلوس حتى يتم إصلاح العطل المركزى لحاسب الدار. انتهزت الفرصة لوجود مدخل للحديث:

- تفضل. استرح. ستنتظر قليلا حتى يتم اعادة تشغيل الجهاز
- ماهو سبب العطل؟
- لا أعرف. بعد قليل يحضر المهندس
- أنا مهندس كمبيوتر
- أهلا. أهلا. هل نطمع فى عونك اذن يابشمهندس؟
- لاشك

فى وقت وجيز أنهى مهمته بنجاح وسط اعجاب كل العاملين بالدار. لم أكن اتوقع أن يكون المبلغ الذى جاء بنفسه خصيصا الى الدار كى يتبرع به هو خمسين جنيها فقط. قال بثقة عندما لحظ دهشتى:

- ربنا يسهل الشهر القادم ان شاء الله وأستطيع أن أدبر مائة جنيه لمستشفى سرطان الأطفال
- تشرفنا فى أى وقت يابشمهندس وبأى مبلغ ولو خمسة جنيهات فقط

على ضوء ابتسامتى وترحيبى به أراد أن يتلطف معى:

- من يعرف؟.ألا يجوز أن أصبح ثريا فى يوم من الأيام فآتى اليك لأتبرع بمائة ألف جنيه؟
- لاشىء بعيد عن قدرة الله وإرادته

عندما هم بالانصراف كنت أتمنى أن أستبقيه بأى شكل ولأى سبب. قلت له فيما يشبه الرجاء:

- لابد أن نقدم لك مشروبا
- متشكر جدا. يجب أن أنصرف
- لايمكن. لقد وفرت على الدار أجر اصلاح الحاسب ، فلا أقل من ان نجاملك بكوب شاى أو فنجان قهوة..هه..مارأيك؟
- أشرب قهوة سادة من فضلك
- لم سادة وأنت فى ريعان شبابك؟
- عندى سكر ، ومن فضلك يكون البن خفيفا
- لماذا؟
- لمجرد الاستمتاع بطعمها فأنا عندى ضغط

يا فرحة ما تمت!!..

بانصراف هذا الشاب المريض الفقير انصرفت معه آمالى المفاجئة بأن يكون هو عريسى المختار بعد رحلة طويلة مملة من عرض بضاعتى على سوق الرجال. أغرب ما فى الأمر أننى رأيته فى المنام يعتصرنى بين ذراعيه – كما هرقل – ويغمرنى بقبلاته وأحضانه وكلماته

المعسولة. صحيت من النوم فى حالة إشباع جنسى كاملة كما لو تمت بيننا علاقة حميمية. لن أنظر الى هذه القصة الغريبة نظرة الانسانة المعذبة المحبطة. على العكس ، كان ينبغى فعلا أن أشعر بالسعادة والامتنان فقد أمضيت ليلة هانئة بين أحضان محبوبى المسكين الذى جاء وراح فى غمضة عين.

****

كريم حبيبى..عندما يعثر كلانا على الآخر لن يكون جسدى الا لك وحدك حتى الموت. جسدى لك وجسدك لى. صورتان طينيتان للحنان والمتعة. وثمة كون يغنى بينهما للحب والهناء. هناك ماء سوف يراق ليسقى بوار الجسد الذى انتظرك طويلا.. وتزهر كل الحقول التى خوفتها الديانات والأساطير من بكاء الجسد ودنس الجسد. يالسوء هذا الطالع الذى يحاصرنى كأنثى سبق أن أصروا على ختانها ليحرموها من حقها الطبيعى فى الفرحة. جسدى هو حياتى وبرزخ خلودى ولغة روحى . عناقه لجسدك وامتزاجه به هو أعظم تجليات الصعود الى الذات الالهية. لجسدينا ياحبيبى فيزياء واحدة ومفتاح واحد ونداء واحد وتأوهات لذيذة. لاشىء يخجل أو يهين أحدنا أو كلينا. أنا بحاجة الى جسدك مثلما أنت بحاجة الى جسدى. فليسكت حوار الخوف والقمع والتسلط ، ولتعانق أرواحنا الشهوة المشروعة كما تشاء. سوف أخبىء مائى لك حتى تستدرجه ليمتزج بمائك فى لحظة هى أسعد لحظات الدنيا. ولنشعل قناديل الحياة والحب والبهجة بمطر منى ومطر منك ، ولتكن ذريتنا صحيحة قوية سوية صالحة، طالما كانت وليدة مثل هذا اللقاء الأسطورى.

****

-13-
فصل سادس من الكتاب
****

لا يمل أبى من مواصلة حملة البروباجاندا الرهيبة التى تخص ابنته الجميلة الجامعية المثقفة التى تجيد الطهى وصناعة الحلوى والغناء والعزف على البيانو!!!.. كان يوم سعده يوم أن غمزت الصنارة حين استمع صديق له الى نشرته المعتادة عن "بنتى مشيرة ربنا يحفظها" فقال انه يتشرف بمصاهرته. تم الاتفاق على أن تتم الصفقة بأسلوب حداثى معاصر لايمس أحد الطرفين بحرج ، وهو أن ألتقى بأشرف فى النادى الاجتماعى الشهير بمصادفة وهمية ترتبت على لقاء الأبوين ، وكأن أحدنا لايعلم شيئا عن الموضوع. اتفق العجوزان على أن يعطيانا فرصة للقاء المنفرد مرة واثنتين وثلاث فباتت التمثيلية مفضوحة لكلينا.

يكبرنى أشرف بعام واحد. فى اللقاء الثانى رجوته ألا يكتف نفسه بارتداء البدلة والكرافات. قلت له بنية حسنة:

- نحن شباب ، ولامعنى لهذه الخنقة. البس كاجوال يا أخى
- المرة القادمة ان شاء الله سأحقق لك رغبتك
- المهم أن تنبع الرغبة من داخلك

تصادف مرور بعض الشباب يوزعون اعلانات دعائية تخص انتخابات مجلس الادارة. كان التنافس مشتعلا بين مرشحين رئيسيين لرئاسة المجلس. يتحدث الأول فى برنامجه المطبوع عن الرحلات والنشاط الثقافى والرياضى والاجتماعى، أما الثانى فكانت ورقته الدعائية لاتحتوى الا على صورة له تكاد تملأ الصفحة وتحتها عبارة"قاهر الظلاميين".

المرشح الأول رجل طيب مسالم يحبه الجميع. الرجل الثانى – منير الشاذلى – له أعداء كثيرون لأسباب تنافسية وسياسية عديدة لاتمس شرفه أو أمانته. عضويته النشطة بالبرلمان أعطته شعبية واسعة بين قطاع كبير من جماهير النادى أبناء الطبقة المتوسطة. هو معروف بالشدة والقوة والعنف منذ تولى نيابة رئيس النادى السابق. يمتلك العديد من الشركات والأراضى والعقارات. يصرف من أمواله ببذخ على النادى مما يجعله محل غيرة الكثير من الحاقدين. أنا من أنصار هذا الرجل ومن أشد المتحمسين له خاصة منذ أن عرفت أنه عصامى بدأ حياته من تحت الصفر.

استطاع منير الشاذلى بمهارة فائقة أن يوقف غزو جماعة الإخوان للنادى حين تجمعوا رجالا ونساء محاولين اقتحام الادارات المختلفة بالنادى واحتلالها وهم يصرخون بهتافات دينية لامحل لها من الإعراب ولا مجال لها فى مثل هذا المكان نهائيا. انتقى منير مجموعة من عمالقة شباب الأنشطة الرياضية الذين تميزوا بأجسامهم الطويلة وصدورهم البارزة العريضة وعضلاتهم القوية وبنيانهم المخيف، وواجه بهم هؤلاء الخرفان أعداء النور والموسيقا والفن والثقافة والحياة. اشتبكوا معهم بقوة وشجاعة مما اضطر الآخرين الى الجرى والهرب من البوابة الرئيسية للنادى خوفا من البطش بهم. كانوا لشدة جبنهم يتدافعون ويتعثرون فى بعضهم البعض أثناء محاولتهم الهرب من العلقة الساخنة وقد خفتت أصواتهم وماتت حناجرهم الى الأبد. حدث ذلك خلال العام الأسود الكئيب الذى حكموا فيه مصر والذى أدعو الله ألا يعود أبدا.

قال أشرف أنه يميل الى انتخاب المرشح الأول. قلت باعتزاز:

- سأنتخب منير الشاذلى
- لماذا؟
- لأنى أحب الأقوياء. حتى فى الأدب تجدنى أعشق نيتشه بصفة خاصة
- لن أستطيع مجادلتك فاطلاعى الأدبى محدود
- وماذا عن الموسيقا؟
- أحب أغانى عبد الوهاب القديمة فقط

- والأغانى الشبابية الجديدة ألا تحبها؟
- لا أطيق سماعها بالمرة
- هل يمكن أن تعطينى حسابك على الفيس بوك حتى يمكننا التواصل؟
- للأسف ليس لدى حساب على الفيس بوك
- ولابريد الكترونى؟!
- ولا بريد الكترونى

عندما أيقنت أنه مازال يعيش فى القرن الماضى بعقلية لاتعرف التطور، صرفت النظر عنه كشريك محتمل. لكنى – كعادتى – رأيت أن أشاغبه على سبيل التسلية حتى لاتنفجر مرارتى من الغيظ لما يحدث لى. كنت قد لاحظت منذ بداية اللقاء أنه ينظر الى جسدى نظرة شهوانية أعرفها جيدا عند الشباب المكبوتين من ذوى الاتجاهات الفكرية والدينية المتخلفة.فاجأته بسؤال صريح:

- لماذا تنظر هكذا الى جسدى؟
- أبدا أنا لا انظر الى جسدك
- بل أرى أنك تتفحصه وتدقق فيه
- انى أنظر فقط الى البنطلون الذى ترتدينه
- ماله البنطلون؟!
- محزق عليك. يظهر مفاتنك
- يخرب بيت المفاتن..وماذا فى ذلك؟
- حرام طبعا
- آه ..دخلنا فى زقاق سد.قم يابنى روّح أحسن لك. طريقك زراعى

الولد ذقنه شديدة النعومة. اذن فهو ملتح ذهنيا. تنمو لحيته تحت الجلد الى الداخل. هكذا نجح الغزو الوهابى فى اقتحام أذهان الشباب العاديين غير المتشددين وحشر فى أدمغتهم أفكارا متعفنة عن الحلال والحرام.

لم تتمالك أمى نفسها من الضحك لعبارة"طريقك زراعى"، أما أبى فقد خاصمنى بسببها لأيام عديدة لأننى أحرجته بفعلتى أمام صديقه، حتى أنسته الأحداث اليومية ما قلته للشيخ غير الملتحى أشرف. الكارثة أن أشرف قال لأبيه الذى قال بدوره لأبى إننى مرفوضة تماما من جانبه لأن شخصيتى قوية!!

ياخيبتى على الرجال الذين يريدون أن يتزوجوا منا حتى يتاح لهم أن يستخدمونا أربعا وعشرين ساعة يوميا معتقدين انهم يقدمون لنا تنازلا عن حريتهم بعد أن وقعوا فى الفخ الذى نصبناه لهم.

أنا أعرف لماذا اعتبر هذا البليد قوة شخصيتى – كما يراها من وجهة نظره – عيبا يخشاه ويجعله يرفضنى. ان هذه الصفة تحرمه من متعة التسلط وإعطاء الأوامر منتظرا السمع والطاعة ولا شىء غير ذلك، فى حين أنه لو كان يتمتع بشخصية سوية لرأى فى هذه الصفة ميزة يمكنه الاستفادة منها فى جعل حياته أكثر راحة ومتعة وجعل أولاده أحسن تربية وتعليما وخلقا. أعرف زوجات تدير حياة أسرها باقتدار شديد بموافقة الرجل ومباركته ، ليس عن ضعف منه ، وانما ثقة منه فى قدرة زوجته كعضو مشارك فعال تتيح له التفرغ للعمل والربح وتساعده على تحمل مسئولية تلك الشركة التى تعاقدا على انشائها منذ البداية.

لذلك أعتقد أن الرجال الذين يصفون الزواج بأنه مؤسسة اجتماعية فاشلة هم الفاشلون فى واقع الأمر، فالزواج الطبيعى هو نصف دين الرجل وعش الأمن والاستقرار الحقيقى للمرأة. لقد دفعنى التأخر فى العمر حتى اليوم بلا ارتباط الى دراسة مفهوم الزواج وطبيعته عند العلماء ، بعد تجريده تماما من كل المؤثرات الشخصية فعرفت أن العلماء البيولوجيين ينظرون اليه على أنه نظام يتضمن الانجاب والتكاثر والحفاظ على النوع البشرى واستمراره. علماء الدين ينظرون اليه على أنه سنة الله للحفاظ على الاستقرار الروحانى والأخلاقى للإنسان. أما علماء

الاقتصاد فإنهم ينظرون اليه باعتباره يؤدى الى تكوين نظام لتقسيم العمل ويتضمن التعاون الذى يؤدى بدوره الى تكوين وحدات انتاجية استهلاكية، بينما يرى علماء الأنثروبوبوجيا أن الزواج ظاهرة حضارية تطورت الى مراحل متعددة المراسيم والصور ، وينظر اليه القانونيون على أنه قواعد وأساليب محددة للسلوك هدفها الحفاظ على النظام العائلى بصورة خاصة والنظام العام بصورة شاملة.كما يرى فيه علماء النفس تفاعلا بين شخصين من جنسين مختلفين يقوم بإشباع الحاجات النفسية والجسمانية بهدف الوصول الى السعادة للطرفين معا. أما علماء الاجتماع فإنهم يرون فى الزواج نظاما اجتماعيا محددا هو الأساس للتكوين العائلى كعلاقة اجتماعية وتفاعل ديناميكى مستمر مع القوى الحضارية والاجتماعية الأخرى، وقد وجد هذا النظام لاستقرار كل من الفرد والعائلة والمجتمع.

أجمع مجلس الذم على تخلف العريس المنفصل عن عصره، عدا فارس الذى رأى أنه كان من الممكن تعليمه وتدريبه فهو ليس الشاب الوحيد البعيد عن التعامل مع أجهزة العصر، والكثير منهم تعلم وتدرب حين وجد اليد الحانية والعقل المتفهم.

حبيبتى وردة طيبة القلب رقيقة الأحاسيس ، تمكن منها حزن شديد عقب فشل هذا الارتباط. عبرت لى عن مشاعرها بشفافية:

- لم حظك سيء هكذا يا أختى؟
- والله لا أعرف ياوردة. ربما لا يكون الأمر كذلك
- كيف؟..ألا تلاحظى أنه من غير المعقول أن نعثر على رجل مناسب من بين كل هؤلاء؟.

معها حق فيما تقول. لكنى لن أستسلم يوما للشعور بأننى غير محبوبة من الرجال، او غير قادرة على التوافق الطبيعى معهم . لن أغرق يوما فى يأس بغيض لايخفف من غلوائه إلا وميض الحسد وسوء الظن بالناس.

حمدا لله الذى خلقنى محبة للناس والحياة والمرح والموسيقا. انطلاقاتى خارج نفسى تمنحنى الأمان والثقة بأننى سوف ألقى يوما ما أنا بحاجة اليه من مودة وإعزاز وعاطفة صادقة. عاطفة تعنى الاهتمام المتبادل بينى وبين من أختاره ويختارنى ، لا باعتبارها وسيلة لخير كل منا ، بل كمزيج يؤدى الى خير مشترك هو حجر الأساس للسعادة الحقيقية. تنهدت طويلا ثم قلت لها:

- ربما يخفى لى القدر مفاجأة مثيرة
- يارب يامشيرة يارب

واحتضنتنى فى صدرها كما لو استودعتها أمى كل مابقلبها من حنان. صلينا معا وكانت دعواتنا الى الله خالصة بطلب الرحمة .

....

حاولت أمى أن تهدأ من روع أبى حين لاحظت لوعته وتدهور حالته النفسية فقالت له:

- اننى عرفت سيدة فاضلة متفرغة لتزويج البنات
- كيف؟
- من خلال احدى صديقاتى
- ولماذا لاتتصلين بها على الفور؟
- رأيت أن أستشيرك أولا قبل أن أجمع عنها مايلزم من معلومات حتى أطمئن على سلامة مقصدها
- مستعد أن أدفع لها ماتريد
- هى لاتتقاضى أجرا عما تفعله ، ولكن تنشد الثواب عند الله فقط بتوفيق رأسين فى الحلال
- ولو أنى لاأصدق ذلك فى هذا الزمن ، لكن اتصلى بها فورا

اتصلت أمى بالسيدة المذكورة. قالت لها السيدة إننى كبرت وتضاءلت فرصى للحصول على عريس خال من الارتباط. قدمت لأمى نماذج من رجال مطلقين وأرامل ، وآخرين لديهم أبناء

وبنات من زيجات سابقة فاشلة. كما قدمت لها رجالا فوق الخمسين وآخرين فوق الستين لم يتزوجوا من قبل ولديهم فائض من المال ونقص فى الصحة ، لكن يمكنهم أن يوفروا لى حياة كريمة. قلت لأمى:

- **لعلك لاتقبلين لى أن أكمل بقية حياتى كممرضة**
- **أنا معك يا ابنتى ولكننا لا نترك بابا دون أن نطرقه**
- **معك حق. يقولون أن من أدمن طرق الباب يوشك أن يفتح له**

قالت لنا هذه السيدة أن هناك فرصة لاتعوض. أرسلت الينا رجلا فى نهاية الأربعينات. فوجئنا به يطرق باب البيت دون معرفة مسبقة. قال ان السيدة المذكورة هى التى أرسلته.

رغم ضيقنا الشديد من الموقف إلا أن أمى استقبلته. ما أن جلس فى الصالون حتى اتصلت أمى هاتفيا بالسيدة تلومها على هذا التصرف ، إذ سمحت لغريب باقتحام البيت دون اتفاق.

قالت السيدة انه شديد الثراء ويابختها من تتزوجه لأنه يعانى من مرض سرى قال الأطباء أنه لن يدعه يعيش أكثر من عام. لذلك رأت أن تمنحنا هذه الفرصة الذهبية قبل أن يقتنصها سوانا. أن أتزوجه ثم أنتظر حتى يموت فأرثه.

يقول المثل الشعبى:"رضينا بالهم والهم لم يرض بنا" ، إذ صرح صاحبنا بمجرد أن بدأ الكلام مع أمى – وحتى قبل أن يرانى - أنه يشترط على العروس أن تكون محجبة.

لم تستدعنى أمى لمقابلته ، وخيرا فعلت بالطبع ، وكانت هذه الواقعة المؤسفة هى آخر عهدنا بتلك الخاطبة التى لاتتقاضى أجرا أو عمولة عن الزيجات التى تقدمها للعوانس.

****

-14-
فصل سابع من الكتاب
****

بدأ عدد القادمين الى البيت لأجلى فى التناقص تدريجيا. الأمر الذى انعكس على أبى بالتوتر. عاوده قلقه المرضى من أجلى. نقض ما بيننا من اتفاق بعدم البحث عن أزواج من خلال مواقع الزواج بالانترنت. كنت قد أقنعته بأن معظم المحاولات التى تجرى من خلال هذه الوسيلة فاشلة ، وأننى لا أحبها وأرفضها رفضا تاما ، فوعدنى بعدم اللجوء اليها مرة ثانية ، خاصة وأن توافد العرسان علينا كان بسم الله ماشاء الله يشكل طابورا طويلا. لم أكن أعلم بما فعل حتى وقعت الكارثة.

عادت ريمه لعادتها القديمه ، حين ابتكر لى اسما رمزيا هو"أمل" وشرح على الموقع أدق تفاصيل حياتى وشخصيتى والتى تشكل من وجهة نظره مواصفات مثالية للزوجة. حتى هواياتى ذكرها بالتفصيل ، كما أرفق بكل هذه البيانات صورة فوتوغرافية لى وضعها الموقع على صدر الصفحة طبقا لنظامه. لم ينس أبى أن يعمل كوبى/ بيست لبعض مدوناتى على صفحتى بالفيس بوك ، والنوتس التى تحمل بعض وجهات نظرى واقتراحاتى فى موضوعات ثقافية واجتماعية متنوعة تشمل الموسيقا والأغانى وكثرة الطلاق بين المتزوجين الشباب والتجار الفاسدين وبرامج الفضائيات وتجار الدين وما الى ذلك من الموضوعات التى يتناقش الشباب من حولها بصفة مستمرة على صفحات الانترنت. كما ذكر أبى تفاصيل مملة أخرى عن نفسه وعن نشاطاته التجارية باعتباره والدى ، وأننى الذى أكتب عنه.

هكذا نجح أبى فى تعرية شخصى تماما أمام شاب غريب لا أعرف عنه ولا يعرف عنى شيئا على الاطلاق.

قبل أن تموت أمه التى كانت تعيش معنا ، كنت أسمعها تقول دائما ان جميل هو أطيب عيّل من عيالها ، وأنه يتصرف دائما بحسن نية وطيبة تصلان الى درجة السذاجة التى لاتتناسب مع سنه وخبرته ، بل الى درجة العبط فى كثير من الأحيان ، مما يسبب له ولأسرته الكثير من المشاكل والأضرار، فضلا عن الخسائر المادية الكبيرة فى تجارته والتى تسبب فيها حسن ظنه بالناس فى معظم الأحيان. الكثير من المتعاملين معه مدينون له بأموال طائلة يتهربون من تسديدها فى الأوقات المتفق عليها. فى النهاية أصبح قسطا كبيرا من رأسماله غائبا عن حركة العمل بسبب الديون المؤجلة ، فتعطلت أعماله وتوقفت مشروعاته التى كان ينوى تنفيذها مؤخرا. بمرور الوقت اعتاد على شيئين هما مطالبة المدينين بأمواله وتهربهم منه حتى أصابه اليأس وانكمش نشاطه .

كلنا فى البيت نستخدم حاسبا واحدا فى غرفة المكتب للاستعمال العام. علاوة على ذلك فلكل منا اللاب توب الخاص به والذى لايستخدمه أحد سواه. لم ألاحظ أن أبى صار لايتعامل مع الكمبيوتر الكبير الا نادرا جدا فقد اقتصر تعامله على اللاب توب الخاص به. كان يأخذه ويجلس به على انفراد فى ركن بعيد عن متناول أبصارنا ويغيب أمامه. اعتقدنا جميعا أنه مشغول بحساباته التجارية التى أصابها الشلل والركود . كان قد صرح لأمى يوما أنه يبحث عن شريك شريف واحد لإنشاء مشروع سياحى ضخم كان يخطط له من قبل ، فلا يجده أبدا. قالت له صابرين:

- ولم الشريك يارجل؟
- مضطر
- الشراكة مشاكلها كثيرة وضررها أكثر من نفعها وأنت أكثر الناس دراية بخداع التجار ومماطلاتهم
- وهل أجمد نشاطى وأقعد بلا عمل؟
- ومالـه؟..نحن مستورين والحمد لله ولسنا بحاجة الى مغامرات غير مأمونة العاقبة للحصول على المزيد من المال

ويبدو أنه اقتنع برأى أمى كما هو الحال دائما ، فقد كانت وجهات نظرها فى أغلب الأحيان صائبة.

هجمت عليه مرة فجأة فى مجلسه لأعاكسه قائلة:

- إياك والمواقع الإباحية يا والدى !!

نهرنى بجملته المعهودة:

- يلا امشى يابت..قليلة الحياء صحيح

فى يوم تلقى الرسالة الالكترونية الآتية:

"ابنتى أمل.. أنا هلال الكومى. رجل أعمال. أبلغ من العمر خمسة وستون عاما. أقيم بالقاهرة وأمتلك أكثر من شركة تعمل فى مجالات مختلفة أهمها السياحة. ابنى الوحيد – مصطفى –على خمس بنات متزوجات. هو فى الثامنة والثلاثين من العمر. يعمل مهندسا بشركة أمريكية كبرى لتصنيع الكيماويات الحرارية، وهو على وشك الانتهاء من دراسة الدكتوراه حيث يعود من بعد ذلك لمصر. ومن المتوقع أن يتم ذلك فى غضون ستة أشهر على الأكثر.

كان مصطفى قد طلب منى أن أبحث له عن عروسة فاخترت له فى البداية بنت عمه وأكثر من قريبة أخرى من بعيد ، لكنه رفض زواج الأقارب رفضا باتا لأسباب علمية. ثم اخترت له عدة بنات من خلال مواقع الزواج المختلفة وبعثت له بتفاصيلهن كاملة ، لكنه رفضهن جميعا لأسباب مختلفة. لكنه عندما قرأ صفحتك على الموقع بكل تفاصيلها العديدة ، انبهر بك وبمواصفاتك الثقافية والفنية وبصورتك ومستوى والدك الاجتماعى والاقتصادى. على الفور طلب منى أن أتصل بك نيابة عنه اتصالا مباشرا خاصا بعيدا عن الموقع ، وأن أتعرف بأسرتك الكريمة المشرفة ، لعلها تكون فاتحة خير بيننا ويتم الزواج بإذن الله. لذلك أرجوك التفضل بكتابة رقم موبايل والدك ورقم التلفون الأرضى لمنزلكم حتى أتصل به وأتشرف بزيارتكم فى أقرب فرصة متاحة ومناقشة الأمر معكم. ولك أطيب تحياتى".

هلال الكومى

بالطبع لم يتأخر والدى ساعة واحدة عن الرد على هذه الرسالة برسالة الكترونية أخرى. لم يعط نفسه فرصة من الوقت أو مهلة للتفكر والتدبر وكيف سيفصح عن نفسه باعتباره"أمل" ، على الأقل حتى لايبدو أمام الرجل مندفعا بما يقلل من مقامه ومقام ابنته:

"عزيزى هلال بك. تحياتى واحترامى وبعد.

أنا سعيد جدا بخطابك ومتفائل به أيضا. الحق أننى لست "أمل" ، فأنا والدها. تريد أن تسألنى بالطبع لماذا كان هذا التنكر. أجيبك بأننى فعلت ذلك من دون علم ابنتى لأنها ترفض الزواج من خلال الانترنت ، ولها العذر فى ذلك ، فكم من مصائب حدثت من تحت رأس هذه الوسيلة الحديثة التى لاتخلو من مغامرة والنجاة من عواقبها تخضع للمثل الشعبى:" بختك يابو بخيت" . أنت أبو بنات وتعلم جيدا كم هى لهفة الرجل منا على تزويج بناته وسترتهن ، وأنه حين ينجح فى ذلك يتنفس الصعداء ويشعر بأنه قد حقق أهم إنجازات عمره. أنا ياسيدى سوف أتشرف بزيارتك فى الوقت الذى تراه مناسبا لك ، ولكن دعنى أتفق معك من الآن على كذبة بيضاء نطلقها أمام ابنتى – واسمها الحقيقى مشيرة – لتبرير حضورك الينا ، خاصة وأنك من القاهرة. أقترح أن تكون الشركات السياحية التى نعمل فى مجالها هى سبب تعارف تم بيننا من قبل فى القاهرة ، وأنك تأتى اليّ لتبادل الأنشطة أو المشاركة فى هذا المجال. سأقنع مشيرة أنها زيارة عمل ، ثم شيئا فشيئا ومن خلال الحديث العائلى تتكلم – كما لو كان بالمصادفة – عن ابنك العزيز الباشمهندس مصطفى ، وبعد ذلك يحلها ألف حلال.

ستجد فى الأتاتش صفحة تحتوى على كل بياناتى التجارية وأرقام تليفوناتى بالبيت والعمل.

مع احترامى وتقديرى

جميل الاسكندرانى

عندما تذاكى جميل وبدأ فى التمهيد لزيارة صديقه القاهرى هلال بك ، لم يكن أحد منا ليشك مثقال ذرة فى أنها زيارة عمل ، فالرجل – كما قال جميل – يبحث عن شريك له ، فماذا يمنع أن يشاركه فى مشروعه المؤجل الذى تسببت في تأجيله بعثرة أمواله فى السوق دون أن يستطيع تحصيلها بالمعدل المفروض. كما أن أحدا لم يشك فى أمره عندما بالغ فى طلباته غير العادية لتجميل المنزل وإعادة ترتيبه ووضع ورد فى الفازات الفارغة. ربما أصبح الأمر مثيرا لبعض شكوكى حين أصر على تواجدى بالبيت يوم وصوله.

عندما طلب ذلك منى استيقظت أجهزة الإنذار والترقب القابعة فى كيانى كفتاة تنتظر "العدل". نظرت مستفسرة بسرعة الى أمى التى اعتادت أن تخطط له وتبقى فى الخفاء حافظة له هيبة وهمية يعيش فيها باعتباره الذكر الآمر الناهى. أدركت أنه أخبرها بشىء ما وطلب منها أن تخفيه عنى. قرأت هذا فى نظراتها التى أحفظ معانيها عن ظهر قلب. إذن فهو عريس!!..شىء عظيم. لكن لماذا الإخفاء؟ لست أدرى.

فى المساء تمكنت بسهولة من انتزاع السر من أمى. قد لايكون فى الأمر براعة منى فصابرين ليست سهلة ، فلابد أنها كانت لديها الرغبة فى إفشاء السّر لى ، وهو عريس جديد كما توقعت ، لكن أباه فقط هو الذى سيحضر أولا لأن العريس بالخارج.

فى الموعد المرتقب وصل هلال بك فى عربة فاخرة سدت الشارع. لم أر فى حياتى رجلا بهذه الأناقة وبهذا الظرف واللطف فى الحديث. لباقته فى الكلام تذكرنى بالحواة ولاعبى الثلاث ورقات فى سوق العيد. لم يكن اهتمامه بى قدر اهتمامه بالحديث عن مشروعاته ، مما أكد حدسى بأن هناك شيئا غير مريح فى هذا الرجل . سال لعاب أبى عندما استمع الى حديث هلال بك عن الملايين التى يستثمرها فى مشروعاته السياحية وغيرها. كان يحمل معه حقيبة بها أوراق وكتالوجات وصور لمشروعاته التى نفذت والتى تحت التنفيذ. تعجبت لانبهار أبى به ، فأبى ليس من ذلك النوع من الرجال المتهافتين على المال أو على الدنيا بوجه عام. قد يكون تدهور حالته المادية هو الذى أوقعه فى هذا الضعف ، وقد يكون دافعه هو انتشال فارس من الإحباط الذى حل به بعد أن رسم فى خياله آمالا كبيرة على المشروع الذى كان يعده له جميل ثم تراجع عنه.

المهم أن الجلسة كانت ناجحة وودية للغاية وحافلة بالمعلومات عن الأسرتين ، وبصفة خاصة عن مصطفى..العريس المنتظر. بالطبع أبدى هلال بك اعجابه الشديد بشكلى ومضمونى وشياكتى وثقافتى وغير ذلك، مما جعل أبى طائرا من السعادة، حتى أنه فاجأنا بقوله فى حماس:

- نقرأ الفاتحة

نظرت اليه أمى فى ذهول محاولة الحيلولة دون مصيبة قد يوقعنا فيها أبى لتعجله غير المدروس:

- لم التعجل يا جميل ونحن حتى لم نر العريس بعد؟

حاول هلال بك امتصاص دهشته هو الآخر حين قال:

- المدام معها حق..ننتظر حتى يحضر مصطفى ان شاء الله

وإذا بأبى يفاجئنا بقوله:

- ومن قال ان هذه الفاتحة تخص مشيرة ومصطفى؟

ظل الرجل فاتحا فمه مندهشا من رعونة صهره أو حسن نيته. سألته أمى فى قلق؟

- علام نقرأ الفاتحة اذن يا حاج؟

- سوف نقرأ الفاتحة على بداية الشراكة بينى وبين هلال بك. الفاتحة الثانية بعد ستة أشهر ان شاء الله

انصرفت أنا وأمى وماضى حتى نترك لهما فرصة للحديث فى شئون العمل التى لاتخصنا.

....

اجتهد جميل ألا يكون ساذجا كما نظن أنا وأمى أحيانا. لم يكشف عن حالته المادية الحقيقية للرجل حتى لايكون موقفه ضعيفا فى الشراكة. غابا معا فى حوارهما المنفرد الذى لم نعرف تفاصيله الا بعد وقوع الكارثة. بعد أن اطلع كل منهما على فكرة مشروع الآخر اتفقا على تحديد موعد جديد لمحاولة الجمع بين المشروعين فى مشروع واحد.

تعددت سفريات أبى الى القاهرة بعد ذلك. لم يعد يتحدث عن مصطفى. المشروع أصبح همه الوحيد.

عاد يوما من القاهرة مبتهجا بشراكته الواعدة لهلال بك. سألته صابرين فى حضورى:

- **هل رأيت بعينيك المشروعات التى رأيتها فى الكتالوجات؟**
- **لم يكن لدينا وقت لذلك ، فكل تخطيطنا كان للمستقبل**
- **وما رأيك فى أسرته وبيته وظروفه بوجه عام؟**
- **لم تكن هناك لقاءات بالمنزل**
- **لابد أنكم التقيتم فى شركة من شركاته**
- **كانت كل لقاءاتنا فى الفنادق الفخمة وكان ينفق ببذخ**
- **هل تم بينكما تعاقد فعلى؟**
- **نعم**
- **كيف وظروفك لاتسمح بالمناصفة فى رأس المال؟**
- **اتفقنا على الثلث من جانبى والثلثين من جانبه**

نظرت صابرين الىّ فى حيرة وكأنها تريد أن تعبر لى عن خوفها من شىء ما. فهمت مايدور برأسها فسألت لأبى:

- **هل حصلت منه على ضمانات لجدية الموضوع؟**

أجابنى فى ارتباك:

- **دعوا هذه المسائل لى وحدى وأنا أتصرف فيها**
- **اسمح لى يا أبى.. أنا مرتابة فى أمر هذا الرجل**

هاج وماج:

- **هكذا أنت وأمك تشككان فى كل ما أقول وأفعل**
- **نحن نخاف على بقية رصيدك من تعب عمرك ، والذى لو فقدته سنضيع جميعا**

كان العقيد هانى فى مأمورية خارج البلاد فلم تستطع أمى الاتصال به. دون أن يدرى والدى أعطت فارس الكارت الذى تركه هلال وبه بياناته وهمست بكلمات فى أذنيه..

عاد فارس من القاهرة ليصدمنا بالحقيقة المرة. ليس هناك هلال بك ولا شركات سياحية ولا شىء مما كان بالكتالوج نهائيا.

صرخت أمى مطالبة جميل بالاتصال بالبنك لوقف صرف الشيك الذى كتبه له . سقط أبى مغشيا عليه ونقلناه الى المستشفى

.....

كان الصمت هو علاجنا الوحيد للأزمة التى ألمت بنا جميعا. ربما خفف من صدمتى شخصيا مجىء صفية لزيارتى تدعونى لحضور حفل زفافها على ضابط طيار. رددت بعفوية نفس الكلمة التى أغضبتنى من أبى:

- **اصطدتيه ازاى يا بت؟**
- **والله ما حاولت معه أى محاولة**
- **فكيف حدث ذلك؟**
- **أحبنى المجنون.. وقع فى حبى**

أتعجب أن يقال دائما أن أحدا قد وقع فى الحب. كلمة الوقوع هذه تنطوى على تناقض صارخ ، لأن المحبة نشاط ايجابى مثمر فعال، به ينهض الانسان ويخطو ويسير. ان فعل الوقوع أو السقوط – كما فى التعبير الأوروبى السائد - مبنى على السلبية ، والحب الحقيقى كله إيجابية.

يكفى انه يجلب للانسان السعادة. صفية لم تسقط وإنما قامت واقفة وقد انتشلها الحب من اليأس والضياع الى الأمل والنور.

- وهل أحببتيه أنت الأخرى؟
- والله أنا أموت فيه
- وكلامك السابق عن حلاوة العنوسة والحرية وخلافه؟
- وحياتك نسيته كله ياحبيبتى
- يا نذالتك
- اسكتى.. الواد لحس عقلى.. عقبالك ياحبيبتى

فرحتى لفرحة صفية جعلتنى أساند صابرين فى استعادة حياتنا الى طبيعتها والتخلص من آثار نكستنا. أهم ما فى الأمر أن أبى قد تماثل للشفاء بعد فترة وجيزة فحمدنا الله ورضينا بقضاءه.

هاهى صديقتى الوحيدة تتزوج وتتركنى للفراغ والتجارب والأمانى والانتظار والخوف والقلق والترقب. وقريبا تزف لى نبأ إنجابها طفلا أو طفلة. فى البداية تركتنى وردة ثم الآن تتركنى صفية فلم يبق أمامى الا الانتظار.

زواج صفية المفاجىء كان وقعه علىّ بمثابة صدمة صاعقة، كما لو كان هناك وازع شيطانى خبيث يتمنى أن تظل عانسة مثلى فنصير فى الهم شرق. ولأنى واثقة من صدق حبى لها ، فإننى لم أخشى على نفسى أن أكون حاسدة . أنا أعى جيدا أن الحسد هو أقوى أسباب الشقاء الانسانى ، وأتعس خصائص الطبيعة البشرية التى تدفع الانسان الى فكرة المقارنة الكريهة بالغير، والتى لا تؤدى دوما الا الى جحيم الكراهية.

كان لابد أن يكون فى قلبى متسع أكثر للحب والرضا ، وأن أتسامى بنفسى متجاوزة إياها حتى أحظى بحريتى الانسانية وأكون أكثر انسجاما مع الحياة والكون.

أبى الجميل جميل لاحظ علىّ شرودا وصمتا وعزلة بعد زواج صديقة عمرى صفية. لمحت فى عينيه نظرات الحسرة على حالى فتألمت له أكثر مما تألم لى . أردت أن أشجعه وأواسيه وأؤكد له أننى لست معترضة على قضاء الله وأننى واثقة من كرمه وعدله ، صابرة على ماقدر لى من فرح وحزن.

قدرتى على الصمود لم تقابلها قدرة مماثلة عند قولونى العصبى المزعج. كل ردود الفعل يختزنها بين ثناياه ثم يطلقها علىّ ألما شديدا يصل الى الرغبة فى البكاء. لاأنسى أبدا أن الطبيب قال لى إن هذا القولون العنيد لن يتركنى لحالى إلا بعد الزواج.

فى كل نوبة من هذه النوبات يحضر لى أبى طبيبا مختلفا عمن جاء به من قبل ، على أمل أن يعثر مرة على طبيب يقضى على هذا اللعين قضاء مبرما. لكنها نفس الأدوية ونفس النصائح من كل الأطباء بالراحة وعدم التوتر والانفعال. يا الهى كيف لى ألا أنفعل أو التوتر وأنا كتلة أنغام من القلق؟!..

رغم كل ما حدث ، ورغم الآلام وكآبة الأيام ، فما كان من أبى إلا أن قال لى:

- تعالى يا مشيرة . أنا أريدك فى"مشوار" مهم !
- إلى أين يا أبى؟ إياك أن يكون عريسا من عرسانك التحف
- لا تخافى..هيا بنا الى معرض السيارات القريب من بيتنا

أصر على أن أنتقى بنفسى موديل السيارة ونوعها وحجمها. دفع الثمن فورا وكأنما يريد أن يؤكد لى أن خسارته الأخيرة لم تؤثر عليه.

فى ظرف أسابيع قليلة كنت أقود سيارتى وأذهب بها الى عملى. كانت سعادتى بها كبيرة إذ أنستنى همومى وأشجانى.

بعد أن زالت منى رهبة القيادة تماما ، كنت أقود عربتى على الكورنيش بسرعة ، مستمتعة بانطلاقى الى غير مكان محدد أو هدف معين . مجرد أن أجرى ، ربما كانت هذه السرعة وسيلة للقضاء على تعثرى وبطء مسيرتى الى جنة الحظ.

شكرا لك يا أبى الرقيق العطوف الحنون. لقد نجحت فى انتشالى من موجة غم كانت على وشك أن تحط على قلبى. بدا لى أنك بدأت فى التغير الى حد ما. هأنت تتوقف عن الحديث معى عن الزواج والارتباط بصفة تكاد تكون نهائية ، وكأنك تحاذر أن تصطدم بحقل ألغام يقذف بى الى متاهات الحيرة والانتظار والألم. ما أجملك أيها الرجل.

****

كل الخواطر الربانية الجميلة تداعب روحى حين أكون بقربك، وكل الهواجس الشيطانية البغيضة تنتابنى حين تباعد الأيام بينى وبينك. إنى ياحبيبى لا أستطيع أن أتصور بحال أن يأتى يوم نتخاصم فيه خصاما أبديا وتنقطع مابيننا كل حبال المودة والغرام لنصبح غريبين لايكلم أحدنا الآخر لو التقاه فجأة فى طريق. أيعقل أن يكون بعد كل هذا الحب فراق أبدى؟!!..لو حدث هذا فهى نهاية العالم عندى. قيامتى. موتى.

أستحلفك بالله يا حبيبى لا تطل غيابك عنى وتتركنى أجتر وحدتى.

****

-15-

الفصل الثامن والأخير من الكتاب المقترح

****

جاء يوما الى الدار ليصطحب معه أمه – المديرة – الى المنزل حين كانت عربتها فى الصيانة. كنت أول من استقبله قبل أن تعرفنى أمه بشخصه الرائع.

من الدقائق الأولى اندفع نحوى كصاروخ ملتهب.تعلق بى بشدة. لم يكن يريد مغادرة المكان وقد تشعب بيننا الحوار فى موضوعات اجتماعية وثقافية مختلفة كشفت عن أمرين أولهما أنه إنسان ذكى حاضر البديهة ملم بالعديد من الأمور الحياتية المتنوعة،وثانيهما أننا على توافق كبير فى وجهات النظر والآراء تجاه كل ما تحدثنا حوله. للوهلة الأولى تمنيت أن يكون هذا الشاب من نصيبى فى عالم الواقع الملموس لا فى عالم الوهم والخيال.تذكرت مقولة أمى :

- **تزوجى من يحبك لا من تحبينه**

عالم الحب كله أسرار يغلفها الغموض. لايمكن لأحد مهما بلغت عبقريته أن يتوصل الى الأسباب التى جعلت هذا الشاب يندفع نحوى بقلبه وعقله الى هذه الدرجة الملفتة. كان الاستنكار الشديد باديا على وجه أمه بعد أن لاحظت التوافق الشديد الذى تم بيننا والذى لم يشكل لها سببا من أسباب السعادة. لله فى خلقه شئون. لو كنت مكانها لسعدت أيما سعادة لعثور ابنى على فتاة أقبل عليها فأقبلت عليه بنفس القدر أو يزيد. كلما أرادت الانصراف استأذنها أن تبقى قليلا حتى ينتهى بيننا الحوار الذى لايريد أبدا أن ينهيه.

هذا بيان عملى علمى واضح أهديه للباحثين عن الحب من أول نظرة. لم تقبل الأم مبرراته للبقاء ملتصقا بى. قرأت الغيرة الجنونية على وجهها وكأنها ضرتى ، أو كأننى سأخطف منها ابنها وأطير به الى الفضاء حيث لاعودة الى الأبد. مع ذلك فقد تبادلنا أرقام الهواتف ووعدنى بزيارتى مرة أخرى رغم اعتراض أمه الصارخ وسخطها على ذلك الوضع الذى رأته غريبا وغير طبيعى يستوجب من جانبها الغضب والاستنكار.

كنت أعلم أن قرارى الأخير بالإضراب عن الزواج ، ما هو الا قرار انفعالى كرد فعل طبيعى لنكساتى وإخفاقاتى العديدة، وأن ظهور رجل مناسب أرضى به وأقنع، سوف يكون كفيلا بإلغاء هذا القرار واقتلاعه من جذوره.

حين نفذ مجدى وعده فزارنى مرة أخرى بالجمعية، جن جنون أمه واستدعته الى مكتبها. كان الباب مفتوحا و صوت زعيقها يجلجل فى الدار ويسمعه الجميع، وهى تردد عبارات رافضة للقائنا بهذا المكان. قبل أن تقوم لتغلق باب غرفتها سمعناها جميعا وهى تهدده بوضوح:

- **ان لم تتزوج ليلى بنت خالتك فلست ابنى ولا أعرفك**
- **هذا ليس عدلا يا أمى. الزواج لايمكن أن يتم بهذه الصورة**
- **سأبيع الشقة التى اشتريتها لك ولن أساعدك بقرش واحد فى نفقات الزواج**
- **لكنى أحبها وأحترمها ياأمى**
- **يابنى هذا كلام فارغ. الحب لا يأتى هكذا بعد دقائق من أول لقاء**
- **حرام عليك يا أمى ، هذه فرصة عمرى التى كنت أنتظرها**
- **لا فائدة. كلامى انتهى**

فوجئنا به جميعا يندفع كالسيل حيث التقط"جركن" صغيرا يحتوى على البنزين الذى ننظف به طابعات الدار الملحقة بحواسبها. لست أعرف كيف لمحه من قبل وحدد مكانه ، وأنا العالمة بالمكان لم يلفت نظرى وجوده أبدا. فتح غطاءه بسرعة وصب ما به فوق رأسه ثم أخرج ولاعة سجائره وأشعل فى نفسه النار احتجاجا على استبداد أمه وتعبيرا عن اصراره على الارتباط بى والموت دون ذلك.

علا الصراخ بين العاملات بالجمعية واندفعت أمه نحوه ملتاعة صارخة:

- **إبنى مجدى ..حبيبى**

ألقى عليه أحد العمال بطانية من بطاطين المعونات الخيرية المكدسة بالدار ، واحتضنه حاويا رأسه بين يديه المحيطتين بالبطانية. مشهد مأساوى اختلط فيه صراخ الأم بالإبن بالنساء. تم استدعاء طبيب الوحدة الذى أسعفه بالعلاج المؤقت قبل نقله الى المستشفى.

لم تصدق الأم نجاة وحيدها بهذه السرعة. تراجعت – مضطرة – عن عنادها وقال له وهو راقد بفراشه فى المنزل:

- ولا يهمك يامجدى سأخطبها لك
- ربنا يخليكى يا امى
- هو أنا عندى كم مجدى؟..كل ما تطلبه مجاب ياحبيبى

علمت طبعا بهذه التفاصيل من مجدى حين التقينا بعد شفائه. كنت أريد أن أحمله من على الأرض وأطير به الى السماء.هذا رجل يريدنى بحق. تكررت لقاءاتنا وازدادت أواصر التفاهم بيننا. الحق أننى لم أحب مجدى كما أحبنى بهذا الاندفاع العاطفى المجنون. كل ماشعرت به أنه ان كان هناك انسان فكر فى لحظة أن يضحى بعمره من أجلى ، فلا أقل من أستجيب لرغبته فى الحياة معى حتى لو لم أكن أحبه بنفس القدر.

تغيرت معاملة أم مجدى لى الى الأفضل نسبيا ، لكنى كنت واثقة أنها أصبحت تكرهنى أكثر من العماء عندما شاهدت ابنها يحترق لأجلى. من المؤكد أنها شخصية مريضة من الصعب تغيير مفاهيمها وأحاسيسها. مثل هذه الحالات – فى رأيى – لا علاج لها ولا أمل فى تغييرها الا من خلال طبيب نفسانى.

الأمر الطبيعى أن تسعد الأم لسعادة ابنها ، والأمر المنطقى أن تحب الفتاة التى أحبها مالم تجد بها عيوبا خطيرة يجهلها فتنبهه اليها .

اتخذت قرارا عاجلا بمغادرة هذه الدار حتى لا أرى هذه المرأة الشيطانة مرة أخرى. بذلت المستحيل حتى عدت من جديد الى مكتبة المعهد التى كنت أعمل بها. لما عدت الى المكتبة كنت فى غاية الفرح. تمنيت أن أحتضن الكتب المرصوصة على أرفف المكتبة جميعا. هذا هو عالمى الحقيقى ولن أتركه بعد اليوم مهما شعرت بالضيق أو الملل.

كان مجدى يزورنى أحيانا بالمكتبة ، ونلتقى بالأماكن العامة أحيانا أخرى نرتب ونخطط ونجهز لليوم الموعود. ثم حدثت المعجزة لأول مرة فى تاريخ تعاقب العرسان على حياتى ، وتمت خطوبتى لمجدى فى جو من الزغاريد والموسيقا والفرحة الغامرة.

انتظرت أن تتنازل أم مجدى عن كبرها وغيرتها منى التى ازدادت بعد الحادثة، لكنها ظلت تمطرنى بنظرات نارية مخيفة، تخفيها تحت ابتسامة صفراء باهتة زائفة. أدركت أنها ستنغص على حياتى بعد زواجى من ابنها ، لكنى لم أجاريها فى تحديها وعنادها وكلى ثقة بتمسك مجدى بى رغم احتياجه المادى الشديد الى عونها. لقد أمعنت تفكيرى وعصرت ذهنى بحثا عن سبب مباشر أو غير مباشر يبرر عداءها لى وغيرتها منى ، حتى أعالجه أو أتخلص منه. من يرى نظراتها النارية المسمومة التى توجهها لى تحت ظل ابتسامة كريهة باهتة يعتقد أن هناك ثأرا قديما بينى وبينها وكأننى قتلت ابنها ولم أتزوجه.

بالطبع تنفس أبى الصعداء بعد إتمام الخطوبة وكان طائرا من الفرحة لاتسعه الدنيا لمجرد أن الخطوة الأولى فى الطريق الى زواجى قد تمت على خير وتم بذلك فك نحسى "الذكر" . لكن أمى الخطيرة كان لها رأى آخر، إذ أنها لم ترتح لحظة واحدة لعينى حماتى وإشاراتها وكلماتها الموجعة وتلميحاتها السخيفة واستفزازها للنسيم الذى يهف من حولى .

كان بمقدور أمى أن تبادلها الكيد والعناد والتحدى ، لكنها صبرت لأجلى وأوصتنى بالصبر عليها حتى تتم الدخلة ويصبح دورها فى حياتى ثانويا ، فهى حتى الآن مازالت المتحكمة والمسيطرة على كل شئون ابنها المادية المرتبطة بتجهيزه للزواج.

طلبت من مجدى أن يستعين بأبيه للسيطرة على طغيان أمه واستبدادها به . صرح فى أسى شديد:

- أبى لاحول له ولا قوة.. كل شىء بيد أمى

- لماذا؟
- تلك قصة طويلة تصعب روايتها
- وما رأيه فى زيجتنا؟
- حاولى أن تفهمينى يامشيرة. أبى ليس له رأى. هو مشغول بعمله فقط

يخيفنى موقف هذه السيدة منى على مستقبلى مع مجدى. أنا خبرت كيد النساء ومكرهن على قدر تجربتى العملية المحدودة فى الحياة. أمى ضربت لى المثل من قبل فى فهم كيد النساء واستيعابه وكيفية النجاة منه. سبق لها أن عانت مرارة كيد الزميلات ومؤامراتهن ضدها بسبب أن سبقتهن جميعا فى الترقية لارتفاع معدل كفاءتها فى العمل. قالت انها تكره العمل مع النساء كراهية شديدة سواء كن زميلات أو رئيسات. العمل عندها مع الرجل أكثر ايجابية واحتراما حيث يقل الكلام ويكثر الانجاز. مع النساء من الممكن أن تتسبب موضة جديدة لفستان احداهن فى إثارة منافسة لها ودفعها الى بذل المستحيل كى تنقلها لأى فرع للمؤسسة بالصعيد. كان الحل المريح لأمى هو أنها اتخذت قرارا بإحالة نفسها الى المعاش المبكر. تركت عملها هربا من وجوههن وتفرغت لبيتها وأولادها فأراحت واستراحت.

من الممكن أن تضعنا هذه"القرشانة" فى زقاق سد. هذا ما كنت أخشاه وما قامت به بالفعل. ظلت تضع أمامنا العراقيل كلما اتخذنا خطوة الى الأمام فى الطريق الى الزفاف. تنتابنى رغبة فى القىء حين أذكر تفاصيل أفعالها المخجلة ومكائدها التى لا أعرف لها سببا غير أن تطيح بى من طريق ابنها.

فى النهاية نجحت فى مسعاها أمام سلبية الأب وتخاذل الابن الذى كان يعتمد كلية على قدرتها المالية لاستحالة الاعتماد على دخله المحدود حتى تتم هذه الزيجة.

وعادت الأحزان الى البيت من جديد. مزقت الصفحات التى كتبتها والتى كنت قد نويت من قبل أن تكون مشروعا لكتاب من تأليفى حول النماذج البشرية من الذكور الذين التقيت بهم. لست أدرى كيف انسقت وراء هذا الانفعال الغاضب الذى بدد مجهودى فى اعداد دراسة اجتماعية حول الزواج والعنوسة وتوجهات الرجال بميولهم المختلفة تجاه هذا الموضوع. تمالكت نفسى وأعدت لصق الأوراق الممزقة بنية اعادة كتابتها على الكمبيوتر.

بينما كنت فى ثورة غضبى أمزق أوراقى وردت الى خاطرى أسطورة الجنرال السويدى الذى فشلت كل محاولاته فى الزواج. كان كلما ترفضه فتاة تقدم لها يعود الى حديقة بيته ويزرع فيها شجرة. استمر على هذا الحال حتى صار بالحديقة اثنتا عشرة شجرة فتوقف بعد ذلك عن زراعة الأشجار. لست أذكر هل وافقت الفتاة الثالثة عشرة على الزواج منه ثم مات، أم أنه مات قبل أن يزرع الشجرة الثالثة عشرة ، أم أنه شعر بالملل فامتنع عن زرع المزيد من الأشجار ثم مات ، أم انه مات ثم تزوج بعد ذلك ولم يزرع شجرة جديدة!..

أما الذى سأظل أذكره ولن أنساه من هذه الأسطورة الاسكندنافية هو أن الجنرال الصبور قد فنى منذ مئات السنين ، لكن أشجاره بقيت حتى اليوم!!.

****

ذهبت الى محطة القطار. كان لابد أن أذهب اليه مادام لم يحضر. الكارثة أننى لست أعرف المدينة التى يقيم بها حبيبى . وقفت حائرة أمام شباك التذاكر. سألنى الموظف:

- الى أين ياهانم؟
- لا أعرف
- اذن فانتظرى فى نهاية الطابور حتى تعرفى ولا تعطلين الناس

جلست على كرسى من الكراسى المواجهة للشباك. أنا لست أعرف أين أنت يابيبى فكيف أسافر اليك؟.. ربما كنت خارج مصر ، بل وربما كنت تهيم روحا فى عالم البرزخ. الله أعلم.

ليس أمامى سوى البقاء هنا بانتظارك ياحبيبى.

****

-16-

لسبب غير مفهوم توقف توافد العرسان على بيتنا. لم يعد أحد يتقدم طالبا يدى للزواج. هل انتشرت عدوى الرفض بينهم أم أنهم وشوشوا فى آذان بعضهم البعض بأن مشيرة فتاة متكبرة متعجرفة معقدة تجعل من نفسها ندا للرجال لاتابعة لهم. تسخر منهم وتهزأ بهم ولا تنوى الارتباط برجل من الأصل.

ساد المنزل شعور بالاكتئاب ، وخيم الصمت على معظم لياليا التى اعتدنا فيها على الموسيقا والرقص والغناء والفرفشة والضحك من أى شيء حتى من أنفسنا. عدت الى حوارى الصامت مع الحائط الأصم المواجه لفراشى أثناء النوم. خيل إلى أنه يخاطبنى بصوت يتردد صداه فى وجدانى المعذب وكأنه يقول لى :

"انى مشفق عليك يا مشيرة. يخيل الى أنك عدوة نفسك. تضيعين الفرص التى تتاح لك ، فضلا عن الفرص التى تضيعها الظروف. لكنك مسئولة عن انصراف العرسان عنك فى جميع الأحوال بتصرفاتك الطائشة التى تنظرين فيها الى عالم الرجال نظرة دونية ، وكأنهم جميعا مرضى نفسيين ومغرورين وأنانيين واستبداديين ومتسلطين. لا يامشيرة. أنت تعرضين نفسك للبوار والوحدة. قد لاتدركين الآن قساوة مشاعر الوحدة وآلامها ، ولكن الزمن سوف يعمق من بشاعة معاناتها بما قد يجعلك تتمنين الموت يوما كى تتخلصى من حياة العنوسة القاتلة. هناك رجال قدوا من حنان. هناك رجال يعرفون قدرك كامرأة ويحترمونك ويعرفون أنك واهبة الحياة. لكنك تضيعين فرص عمرك التى قد لاتتكرر فى البحث عن المعلومات التى تتسبب فى المزيد من التباعد بينك وبين الرجل. لماذا لاتتخلين عن عقلك قليلا وتستسلمين لفطرتك الأنثوية كما خلقها الله. لاتنخدعى بهؤلاء السيدات اللاتى يتصدرن الجمعيات النسائية التى تتحدث عن حقوق المرأة وظلم المرأة ، فمعظمهن كاذبات يبحثن عن سبوبة للشهرة أو الوجاهة الاجتماعية أو المكسب المادى ، أو ينفسن عن عقدهن النفسية المكبوتة. ما أروع أن ترحمى نفسك من كل هذه الترهات فلا تنامين على تحجرى وجمودى وكآبتى ، بل تنامين فى حضن رجل يحبك ويفصل بينى وبين وجهك فى المساء "..

موجات اليأس البغيض راحت تهاجمنى بقوة ، وكأنها تنتظر الفرصة لاستسلامى وقد استبدت بى الحيرة وتمكن منى الألم. لكن هناك قوة الهية جبارة تدفعنى دوما– كلما اقتربت من السقوط – بعيدا عن ضربات اليأس..وكانت الفكرة المجنونة التى وردت على عقلى: لماذا لا أسافر الى "سامى" وقد هجر البلاد لأجل أن ينسانى وينسى تجربته المريرة معى؟..

كنت صريحة للغاية مع أبى وأمى قلت لهما معا:

- **أنا على وشك الاختناق. أريد أن أركب طائرة.. أن أسافر بعيدا عن مصر. لم أعد أثق فى حل بديل يعيد اليّ اتزانى ويحفظ لى سلامى الداخلى.**

لم يعترض أحدهما على رغبتى الجنونية المفاجئة ، حتى من قبل أن أشرح لهما قصتى القديمة مع سامى. اعتقدت صابرين أننى أريد السفر الى خالى المقيم بالامارات ، لمجرد تغيير الجو. لكن الأمر لم يكن كذلك.. يبدو أن حالتى كان يرثى لها دون أن أدرى. هكذا كانت تقول نظرات عيني كل منهما لى.

كان سامى – زميلى بالكلية وبنفس القسم - قد أبدى رغبة مباشرة فى الارتباط بى ، بعدأن عبر لى مباشرة عن حبه لي واعجابه الشديد بشخصي وطباعى وكل شيء فى. ظروفه المادية جيدة تتيح له إتمام الزواج فى زمن قياسى . لديه شقة تمليك ورصيد لا بأس به فى البنك تركه له أبوه. قلت له إن شعورى تجاهه لا يتجاوز شعور الأخت لأخيها. كنت صادقة معه ومع نفسى تماما. لم أشأ أن يكون انتهاز الفرصة هو الحل النهائى لمشكلتى المعلقة. كرر طلبه أكثر من مرة فلم يستمع إلا الى نفس الاجابة. والله أنا لم أكن قاسية معه فى ردى . على العكس كنت أخاطبه بمنتهى الرقة إشفاقا على حاله واحتراما لمشاعره. فى النهاية قال لى:

- **لم يعد لى مكان فى مصر من بعدك**

بعدها حصل مباشرة على عقد عمل فى الامارات وسافر دون وداع. حزنت لأجله كثيرا ، ولكن لم يكن بيدى شىء أفعله.

قال أبى:

- **وماذا تريدين منه الآن؟**
- **أريد أن أعرف إن كان ما زال يحبنى أم لا**

قالت أمى:

- **ومن أدراك أنه لم يتزوج حتى الآن؟**
- **أتابع أخباره مع صديقتين لى تعملان هناك**
- **يابنت اللعّيبة!!**
- **تلميذتك ياصابرين**

قال أبى:

- **ولنفترض أنه ما زال يحبك..ماذا بشأنك أنت؟**
- **زوجتك قالت لى أن اتزوج من يحبنى لا من أحبه. اسألها**
- **لست مشيرة التى أعرفها. هل تريدين الزواج لمجرد الزواج حتى لو لم تحملى مشاعر حب تجاه زوجك؟**
- **أنا لا أحمل نحوه مشاعر حب ، لكنى لا أكرهه بالطبع**
- **لو كانت هذه قناعتك فسأحجز لك تذكرة على أول طائرة للامارات**
- **حبيبى ياجميل**

قذفت بنفسى بين أحضانه. أدرك حقيقة مشاعرى وفهم معنى محاولتى الأخيرة فى البحث لنفسى عن مخرج فأشفق على ولم يرفض طلبى المجنون . قالت صابرين للتخفيف من انفعالاتى وتأثر أبى بها:

- **روحى له يا بنت. ان شاء الله ستحبينه لو كان هناك نصيب**

وسأل أبى:

- **هل ستقيمين عند خالك أم عند صديقتيك؟**

لم أفكر كثيرا. قلت له:

- **بل عند صديقتى ، لكنى سأزور خالى بالطبع**

....

فى الطائرة كان شعورى بالامتنان لأبى فائقا. تنفست بعمق شديد حينما صعدت الطائرة بى الى السماء. بلغت بى النشوة أن طلبت علبة بيرة وأشعلت سيجارة وكنت فى غاية من السعادة. نوال وأميرة لم تصدقا أننى سأكون عندهما بعد ساعات!..

تنافستا فى حسن استقبالى وتكريمى واستضافتى و كأن لى أختين فى الامارات. سهرنا نتكلم ونضحك ونسترجع ذكرياتنا أيام الجامعة حتى الصباح. لم نترك شابا من زملائنا إلا و"قطعنا فى فروته" مدحا وذما.. هما لم تتزوجا حتى الآن ، لكنى لاحظت أن هذه المسألة غير واردة على تفكيرهما على الاطلاق. العمل والمكسب والفسحة هم شغلهما الشاغل فى الوقت الحالى. لما سألتهما عن المستقبل قالت نوال:

- **المستقبل بيد الله..**

وقالت أميرة:

- **هيا نغنى ونرقص.**

دعانا سامى لتناول الغداء بشقته الفاخرة. بعد الغداء قالت نوال:

- **سنذهب الى السوق ونعود اليكما بعد ساعة .**

وقالت أميرة:

- **لن نسمح لكما بأكثر من ساعة تبحثان فيها أموركما السياسية ثم نعود**
- **لن نتأخر أكثر من ذلك حتى لاندع فرصة للشيطان كى يقوم بعمله معكما**

لم يكن هو سامى الذى عرفته. كان انسانا آخر بكل المقاييس. هل تغير الغربة الناس بهذه الكيفية؟..

عاملنى بلطف ورقة زائدين. لكنه رفضنى بقسوة تصل الى حد الإيلام حين قال لى:

- اسمها دنيا الأغيار يا مشيرة
- يعنى إيه؟
- يعنى كل شىء فيها إما أن يتغير وإما أن يزول
- صرت فيلسوفا يا سامى
- أبدا. كل ما هنالك أننى أحاول أن أجد تفسيرا لما تسمينه تغيرا
- ألا تعترف أن مشاعرك تجاهى تغيرت؟
- لا أستطيع أن أنكر ذلك
- لماذا ؟ هل هناك علاقة جديدة؟
- أبدا والله

سادت بيننا فترة صمت سخيفة ، سألنى بعدها:

- هل يمكننى أن أعرف الدافع الذى جاء بك الى هنا؟

أنهيت قصتى معه بقولى:

- جئت لزيارة خالى!!

....

عدت الى مصر بخفى حنين كما يقولون. مكسورة الخاطر مجروحة الكبرياء ، نادمة على مافعلته بنفسى ، لكنى كنت قد أصبحت أكثر ثباتا وواقعية وتفاؤلا بالمستقبل.

....

بعد فرحتى بالعودة الى المكتبة بقليل عاودنى الشعور المرضى بالملل، وهذا مالم أكن أتوقعه أبدا.

آه لو كنت أعرف أن هناك أطباء يداوون الانسان من الملل لكنت أول من عاودهم. ، فالملل ملازم لحياتى على الدوام، وأغلب ظنى أن ظهوره أواختفاءه ليس مرتبطا بحالتى النفسية الناتجة عن الفشل وسوء الحظ فى العثور على عريس ، فهو طبيعة فى تكوينى تجرى فى عروقى كما يجرى الدم . لافائدة. لم أعد أستطيع الاستمرار فى المكتبة. لاسبب. لامبرر سوى الملل.

نشرت إعلانا فى جريدة الوسيط طالبة وظيفة باحدى رياض الأطفال تتناسب مع مؤهلاتى وقدراتى . كان وليد فى ذهنى وأنا أفكر فى هذه الوظيفة. ربما فكرت فيها لأجله خصيصا. الولد مازال عندنا وقد اعتاد الحياة فى بيتنا وألفها حتى أنه نادرا ما أصبح يسأل عن أبيه الغامض الغائب.

فجأة عاد الفرح الى بيتنا حين جاءنا آسر يطلب وردة. شاب جميل. ضابط فى القوات المسلحة. من أسرة صديقة. كل ما فيه وفى أسرته مقبول. سبحان الله. هل أحسد وردة على حظها الذى جاء مع أول رجل يتقدم لها ، أم أن الحسد لايجوز على الأخت الحبيبة التى تتمنى لى الخير والسعادة مثلما تتمناها لنفسها.

من اللقاء الأول بين الأسرتين تم الاتفاق على كل شىء.. وفى ظرف أسابيع قليلة اختفت وردة من بيتنا وقد صارت مدام آسر. لكنها لم تقطع حبل المودة معنا يوما واحدا. كانت دائمة الاتصال بنا جميعا و بكل منا على حدة، كما كانت تزورنا كثيرا بصحبة آسر الذى كان يسعد بالتواجد بيننا.

الحمد لله. ليست الحياة كلها هم وغم. السعادة حاضرة على الدوام ، لكنها تختار متى وأين تظهر وتفعل وتؤثر ليحظى كلّ بنصيبه المقدر له منها.

علاقتى بفارس طبيعية جدا كأى علاقة بين أخ وأخته ، لكنه يجهل ما ترسب فى لاوعيه من أفكار ومشاعر تجاهى كأنثى لا كشقيقة. يصير بذلك الى صورة من أبيه وان اختلفت الأجيال.

لذلك مازال موقفه منى حتى اليوم معاكسا لرغباتى واتجاهاتى بل وحقوقى كأنثى ، فيما يختص برفضى لكل من تقدم الى من عرسان باستثناء ذلك الذى أعلن رفضه لى بسبب قوة شخصيتى كما ادعى!. عموما أنا لا أضع وزنا كبيرا لآرائه ومواقفه لأنى أعلم جيدا أنه بمجرد أن يعثر على فتاته فسوف يغادر البيت ويعيش حياته منشغلا فى شئونه غير عابىء بمصيرى ، لا عن جحود منه أو كراهية والعياذ بالله ، وإنما تلك طبيعة الحياة ولن أستطيع أن أتحدى مسيرتها.

عندما ذهبت وردة الى بيتها الجديد شعرت بغربة حقيقية، رغم أن أمى كانت دائمة الوقوف بجانبى ومساندتى فى كل مواقفى باستثناء مسألة الشقة المستقلة اذ قالت لى ساعتها وهى تخبط بكفها على صدرها:

- انت اتجننتى يا بنت؟!
- سبق أن قلت لبابا أننى لايمكن أن أكون عاقلة إلا إذا جننت

رغم وعيها الشديد وعقلها المستنير وأفقها المتسع ، إلا أن طيبة قلبها وحسن نواياها جعلاها تصدق فى البداية تلك الأكذوبة التى اشتغلت بها عريس الغفلة عندما استفزنى شعوره المبالغ فيه بالفخر والامتلاء وامتلاك الدنيا ، لمجرد أنه قد امتلك آلافا من الأوراق المالية الخضراء التى يسيل لها لعاب الخلق وتعمى أمامها بصائرهم.

ازداد انشغالى بوردة واهتمامى بها. كنت أسألها كثيرا هل انقطعت دورتها الشهرية أم ليس بعد. أتصور نفسى وقد أصبحت خالة لطفل جديد يعطى طعما خاصا لأسرتنا ويصبح صديقا حميما لوليد عندما يكبر.

حملت وردة وستلد خلال أشهر معدودة ، وسوف تحمل ثانية وتلد ان شاء الله ، مثلما حدث مع كثير من صديقاتى وزميلاتى..وأتساءل هل سأبقى هكذا كما أنا وأعيد قصة خالتى فأمضى عمرى كله وحيدة حتى الموت بلا أنيس يملأ على حياتى؟.. وليد لن يبقى عندى الى الأبد. من المؤكد أن والده سيستعيده يوما ، وسوف أعانى آلاما من نوع جديد بعد فراقه. هو ليس ابنى ، لكنه ابنى. هذا الكيان الانسانى الضعيف الرقيق الذى وضعه القدر فى طريقى دون أن أعرف السبب ، بل أكتفى بمعرفة النتيجة وهى التعويض النفسى والعاطفى عن العنوسة الكريهة.

هنيئا لك ياوردة ، واللهم لا حسد فأنت أختى وحبيبتى ولا يعقل أبدا أن أحسدك، وإن كان لابد لى أن أمارس الحسد فى حياتى فليكن تجاه أى أم أعرفها من الزميلات والصديقات لا تجاهك أنت يا شقيقتى الحبيبة.

لا أستطيع أن أنكر أن الضجر قد بلغ بى مداه. اليأس يشهر أسلحته فى وجهى ، لكنى أقاومه بسلاحى الجبار الذى تأتينى ذخيرته من الثقة بعدالة الله. أنا بحاجة الى المزيد من الصبر كى أنتصر على ذلك الضجر وأتخلص مما يجلبه من هم وغم.

تذكرت نبى الله أيوب عليه السلام. استرجعت قصته التى صارت أسطورة الصبر عند الخلق. بل إنى رجعت الى سفر أيوب والتهمته فى ليلة واحدة.. الفكرة التى يرمى اليها هذا السفر هى أن النكبات المتلاحقة لاينبغى أن تعصف باليقين أو أن تضعف الإيمان، لأنها اختبارات الهية تصهر معدن الانسان وتصلب عوده ، ليخرج منه المؤمن أقوى وأنقى وأطهر. كما تبين أن حظوظ الانسان فى الحياة ليست مرتبطة بالقيم الأخلاقية والفوارق الأدبية بين الناس. ذلك ان أحوال الحياة توحى فى بعض الأحيان بأن السعادة والشقاء والآلام والمسرات موزعة فى هذه الدنيا توزيعا غير معقول. لكن الحقيقة أن هناك قوة خارقة حكيمة وخبيرة هى التى توزع الحظوظ والأنصبة والأرزاق والأعمار. للعناية الالهية خطة وتدبير يعجز العقل عن إدراكه.

قادنى سفر أيوب الى سفر الجامعة الذى حسم لى أمرى فى البداية حين قرأت ما جاء به:

"أى فائدة للبشر من كل تعبهم الذى يعانونه تحت الشمس؟..جيل يمضى وجيل يأتى والأرض قائمة مدى الدهر، والشمس تشرق وتغرب، ثم تسرع الى موضعها الذى جاءت منه. جميع الأمور لا يستطيع الانسان أن أن يفهمها. لاتشبع العين من النظر ولا تمتلىء الأذن من السمع. ماكان فهو الذى سيكون ، وما صنع فهو الذى سيصنع ، فليس تحت الشمس جديد".

لكنى صدمت فى نهاية السفر حين تبين لى أنه ينضم الى حزب أعداء المرأة إذ يقول:

"تجولت بقلبى لأعلم وأبحث لألتمس الحكمة وحقيقة الأمور، ولأعلم نفاق الجهال وجنون الحمقى، فوجدت أن ما هو أمرّ من الموت، المرأة التى قلبها أحبولة وشبكة، ويداها قيود ، فمن كان صالحا عند الله فإنه ينجو منها ، أما الخاطىء فيقتنص بها".

****

لم أعد واثقة تماما من أن "بيبى" شخصية تخيلية بعثت فيها الحياة إنقاذا لنفسى من الحزن واليأس، أم أنه انسان حقيقى اسمه "كريم" عشت معه طفولتى وصباى وشبابى ، واختزنت ذاكرتى العديد من القصص والأحداث والمواقف التى جمعت بيننا على مر السنين. أيعقل أن يصل خيالى الى درجة تصور جمل يجرى من خلفنا على شاطىء العجمى فى عز البرد والمطر، ولايكون هذا حقيقة حدثت بالفعل؟..أيجمح بى الخيال الى حديقة المنتزه وقطع الجاتوه الأربع والشمعة بينهم وأغنية أهواك؟..يا الهى ما أروع الانسان حين يجد لنفسه المخرج يلى الآخر من مآزق الحياة التى لامفر من مواجهتها لتبديد الوحشة والوحدة والغربة ليستبدل بها مشاعر ندية تشرح الصدر وتثلج الفؤاد.

أصبحت أحلامى الهائمة بين الخيال والحقيقة هى غذاء روحى وبلسم جروحى.. هل أنت – حقيقة – الذى قرأ والدك الفاتحة مع والدى ونحن طفلان؟..بربك تسأله وتجيبنى. أنا لو سألت هذا السؤال لأبى لاتهمنى بالجنون، خاصة لو سقت له المزيد من التفاصيل المحفورة فى قلب ذاكرتى وفى ذاكرة قلبى عنك ياحبيبى.

يقول أحد مشاهير العلماء فى كتاب له عن الحضارة والحرب والموت:" اننا نرحب بالأوهام لأنها تجنبنا الأزمات العصبية، وتذلل لنا سبل المسرات، فلا ينبغى أن نشكو إذا عارضتها الحقيقة فانهار بناؤها وذهبت بددا.علينا أن نحتفظ بالاعتقاد الذى يمكننا من أن نلائم بين أنفسنا وبين واقعنا الأليم". لذلك أكاد أوقن أننى أسير فى الطريق الصحيح الى حد كبير حين أضع نفسى فى برزخ الحيرة بين الخيال والواقع، فليس أشقى من النفس المغلقة المنطوية على أحزانها، الغارقة فى همومها ، المتمحورة حول ذاتها ، حين لا تجد متنفسا للشكوى أو منفذا للاعتراف.

رغم يقينى فإن كريم يبقى لغزا كونيا يحيرنى بين الحقيقة والخيال. لكن لماذا أرهق نفسى بالبحث عن الحقيقة بين هذه الأسفار وأمامى سبيل خلاص لاشك فيه؟..

قمت فتوضأت وصليت لله ركعتين ، تنفست بعدهما بارتياح شديد.

انتهى طابور العرسان الذى كان يستفزك يا بيبى. لم يعد أحد يأتى ليطلبنى. يبدو أنهم علموا أننى محجوزة لك وأنك سوف تتقدم لى يوما ، وأنك الأولى بى والأجدر والأحق، فاحتفظوا بماء وجوههم وامتنعوا عنى. حتى لو عادوا من جديد فلن أسمح لأحدهم أن يفوز منى ولو بنظرة خاطفة أو لمحة عابرة. لن ينعم بضمى سواك. لن يحظ بقبلاتى غيرك. لن يشاطرنى الفراش إلاك يا بيبى الجميل. سوف أسكب فى أذنيك أغانى الحب وأغاريد الغرام ، وسوف أرقص لك وأغنى وأعزف أعذب الأحان. أعرف أن عشاقك كثيرون يقدسون جمال طبعك وتخبت قلوبهم لحسن وجهك، لكنك لن تعبأ بهم وستختارنى. لن أهون عليك أن تتركنى لهذه الوحدة فأعيش فى منفى عن الناس والحياة. ارحمنى يابيبى واعطف علىّ ولاتكن قاسى القلب فعهدى بك غير ذلك. لاتهجرنى ولاتصدنى فأنا مقبلة عليك بكل كيانى ، وأنا الجديرة بك من دون العالمين. أنا التى تضاعف وجدها وازدادت صبوتها ، فارفق بقلبى الولهان وتعال الى حضنى لترتشف من صدرى رحيقا أشهى من الشهد ، ولسوف تسكر منه وأنت تشم فيه رائحة الجنة وعبق الخلود.

****

لست أدرى لماذا باعدت الأحداث الأخيرة بينى وبين أبى الى حد ملحوظ . كانت لديه آمال عريضة فى نجاح مشروعه الكبير. بعد أن راح ضحية المحتال ألقى على تعثرى بمسئولية تعثره . كان فارس أول المتضررين مما حدث ، إذ تبددت آماله الكبيرة لصياغة مستقبله ، فالوالد فى حقيقة الأمر لديه الكفاية من المال الذى يغنيه عن طلب المزيد ، لكنه كان يريد أن يضع فارس على أول طريق "البزنس" الذى ينشده ابنه. بالتالى فقد أصبح فارس يكشر فى

وجهى كلما رآنى وكأننى أصبحت المسئولة عما أصابهما من فشل بسببى لابسبب سذاجة أبى وغفلته عن وحشية سوق الأعمال ورجال الأعمال ولصوص الأعمال.

أكاد أفقد عقلى حين يتجاهل الرجلان السبب الحقيقى فى فشلهما ويلقيان باللوم علىّ – فى لاوعيهما على الأقل. ينكران بكل بساطة أنهما وقعا ضحية نصاب لم أكن أعرفه أصلا. والدى هو الذى جاء به فسلبه معظم مدخراته بين يوم وليلة.

الجديد فى الأمر أن أبى قد سيطر عليه هاجس خطير أسرّ به الى أمى . لقد تنبأ لى بالعنوسة الدائمة ، وبأنه بعد أن يموت هو وأمى ويتزوج اخوتى ويستقل كل بحياته ، سوف أبقى وحيدة بالشقة الكبيرة ذات الغرف الواسعة ، وأن إخوتى ستقل زياراتهم لى بالتدريج حتى تنقطع ، وأننى قد أموت وتتعفن جثتى قبل أن يسأل أحدهم عنى.

حاولت أمى أن تدفع عنه هذا الهاجس الشيطانى المرعب بكل السبل.

- صل على النبى ياحاج واعمل عمرة تغسل فيها روحك من هذه الخيالات
- أليس من المحتمل أن يحدث لها ذلك بالفعل؟
- محتمل طبعا ياجميل لكن هذا ليس من شأننا. لو أراد الله لها ذلك فلن تستطيع أن تفعل لها شيئا.
- لا.. بل يمكننى أن أفعل شيئا
- يدى على يدك
- هيا بنا فورا الى الشهر العقارى
- لماذا؟
- سأكتب الشقة بإسم مشيرة حتى لاينازعها أخوتها فى ملكيتها بعد وفاتنا
- ان كان هذا يريحك ويبعد عنك شيطان الوسوسة ، فهيا بنا

لم أعلم بهذه القصة إلا مؤخرا ، لكن أمى قالت لى إنه ارتاح نفسيا بعد أن أجرى هذه الخطوة لصالحى.

أرادت صابرين أن تتحاشى احتمال حدوث ضغينة بينى وبين اخوتى فى المستقبل عندما يعلمون بالواقعة ، فصارحتهم بما حدث فى صورة استفسارية عن مدى موافقتهم على ذلك. أثلجت إجاباتهم جميعا صدرها إذ عبروا عن ترحيبهم الشديد بذلك ، بل إن فارس قال لها :

- ثقى يا أمى أننى لن أفكر يوما أن أطمع – أنا أو أحد اخوتى – فى أخذ ولو ملاءة سرير من هذه الشقة !

.....

فجأة وجدت أبى مقبلا علىّ وقد اكتسى وجهه بابتسامة عريضة وكأن ماحدث لم يحدث. يبدو أن سعادته بزواج وردة واقترابه من أن يكون جدا قد طغيا على كل أحزانه . حمدت الله أن استطاع أن يتجاوز أزمته ويرجع الى طبيعته مطمئنا الى أن القضاء سوف يعيد اليه حقوقه ان عاجلا أو آجلا. جاءت أمى والسعادة تغمرها ومعها فارس وماضى. دخلوا غرفتى مجتمعين لأول مرة. كنت متعبة أفكر فى ان أستريح قليلا إذ بذلت اليوم جهدا كبيرا فى البيت وخارجه. نظرت اليهم فى تعجب وقد أصابتنى فرحتهم الغامضة بعدوى السعادة.سألت أمى وأنا أبتسم فى دهشة:

- ايه الحكاية ياماما؟

أجابتنى بنبرات لم أسمعها منها من قبل:

- بعد قليل يحضر لزيارتنا رجل سيعجبك جدا

ضحكت بعفوية وقد اختلطت صور بيبى بصور رجال آخرين لم أعرفهم من قبل وآخرين عرفتهم. أما الذين تقدموا لى فقد سقطوا فى بالوعة نسيانى العميقة ولم أعد أذكر منهم أحدا.

هل يكون "بيبى" وتنجلى الأمور فأعرف أن أحلام يقظتى ومنامى لم تكن أوهاما ، وإنما هى حقيقة واقعة.. أم ترى من يكون؟!!..صرخت من أعلى درجات الفضول والترقب:

- من هو يا أمى؟

- مفاجأة..لن نخبرك به حتى يحضر بنفسه
- صفيه لى اذن
- هو رجل طويل عريض قوى البنيان شديد الأدب والحياء

ثم أكمل أبى وراءها كما لو كان يسمّع لى قطعة من المحفوظات الانشائية:

- حديثى معه أكد لى أنه رجل طيب ومثقف وذو ذوق رفيع..أنا واثق أنه سيعجبك

وقال فارس :

- الكلمة عنده بحساب ، فلا يتكلم الا باختصار

وأضاف ماضى:

- وأجمل مافيه ابتسامته

اندفع وليد صائحا فى فرحة بريئة:

- وأنا متأكد ياماما مشيرة انه سيعجبك

قلت فى فرحة غامضة وكأن كابوسا ثقيلا على وشك أن ينزاح عن صدرى:

- اذن فقد التقيتم به جميعا من وراء ظهرى

قال أبى بثقة:

- لقد وافقنا جميعا عليه قبل أن نسألك رأيك حتى لايتعرض الرجل لألاعيبك واشتغالاتك التى لم ينج منها واحد من الذين تقدموا اليك
- هل طلبنى منكم؟
- لم يطلبك صراحة، لكنه يريد أن يراك ، ولم يشأ أن يتكلم إلا بعد أن يحضر
- وإذا لم أوافق؟
- بل ستوافقين
- من أين جئتم به؟
- هو الذى جاءنا.. وأمك هى أول من اختاره وصمم عليه
- متى يصل ؟
- مساء اليوم بإذن الله

....

دخلت لأستريح قليلا على فراشى وأنفض عن نفسى التعب الجسمانى والتوتر والتوجس والحيرة والظنون.

لأول مرة لا أشعر بالاختناق قبل أن أغفو حين اصطدم بصرى بالحائط الأصم المواجه لفراشى. رأيت الحائط يبتسم لى فكدت أجن من الدهشة.

فى الدقائق القليلة التى نمتها ووليد فى حضنى ، حلمت بمجدى يحاول تقبيلى وأنا أمتنع عنه وأدفعه بعيدا عنى.

بعد أن أفقت غيرت ملابسى وتزينت وتعطرت فى انتظار قدوم الرجل المفاجأة الذى أصروا على تكتم أخباره وإخفائها عنى ، مثلما أصررت أنا الأخرى ألا ألح عليهم فى الافصاح عن شخصه حتى تتضاعف فرحتى بالمفاجأة التى أنتظرها منذ مايقرب من ستة وثلاثين عاما .

بعد دقائق قليلة جاء أحمد مراد حاملا باقة من الورد على يديه. كنت أعرف أنه هو ، حين دمعت عيناى!.

****

سعيــد سالم

الاسكندرية فى يناير2017